همس العشق
عمرو الجندي
مصادر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

اسم المؤلف: عمرو الجندي
اسم الكتاب: هوس العشق
تدقيق لغوي: وكالة مارلي
الطبعة الأولى: 2019
رقم الايداع: 2019/14976
الترقيم الدولي: 978-977-6709-14-0

ديير للنشر والتوزيع©

2 عمارات الوادي المنطقة 11 الحي الثامن مدينة نصر القاهرة
تليفون: 002024725789

E-mail:deer.publishing@gmail.com
Facebook @ deer.publishing
Instagram @ deer_for_publishing
Twitter @ deerpublishing
WhatsApp : 002010106268

#في_القراءة_حياة
#القراءة_حب

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
القاهرة- جمهورية مصرالعربية

جميع الحقوق محفوظة لديير للنشر والتوزيع©، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر اوغير مباشر، الكلي اوالجزئي، لأي مما ورد
في هذا المصنف اونسخة، اوتصويرة، اوترجمتة، اوتخزين اي جزء من هذا الكتاب
بأية وسيلة الكترونية اوميكانيكية، اوالاقتباس منة، اوتحويلة رقميا، اواسترجاعة،
اواتاحتة عبر شبكة الانترنت، الا باذن كتابي مسبق صريح من الناشر.

عمرو الجندي

هوس العشق

مجموعة قصصية

إهداء

إلى الذي حاربت معه الموت وقتلت معه اليأس
لم أنقذني مرات من هوس السقطات
ولم ملأت ضحكاته قلبي المتخم بالحزن
إلى ابني "يحيى"
أكثر من أي وقت مضى

عمرو الجندي

عزيزي القاريء، بعد غياب طويل لمدة خمس سنوات، قررت أن أعيد إليك ما خبأته خلال تلك الفترة المنصرمة، خلال تلك الرحلة سنخوض عالما جديدا ومختلفا عن سابقه في الجزء الأول الذي طُرح عام 2014 خلال معرض القاهرة الدولي للكتاب، وأؤكد لك أننا هنا لا نبحث عن قاتل أو مجرم أو مهووس أو حتى مجنون كما يلقب العامة كل من حاد عقله عن المسار الطبيعي من وجهات نظرهم الضيقة والموصومة بالأعراف القاسية، غير المنطقية، والتي يغلفها الجهل وادعاء المعرفة ويُصر فيها الشخص العادي على صم أذنيه وعقله أيضا.

لذلك أنصحك بأن تعيش التفاصيل مستمتعا بعيدا عن محاولة البحث المرهقة التي بالكاد ستجعلك تتكهن بالأحداث لأننا في النهاية لسنا في سباق هنا، بل في رحلة نمرق فيها دهاليز وممرات العقل البشري المعقد، كما أننا سنكشف الستار عن جانبٍ جديدٍ من عالم كمال الشريف ربما نصل إلى حل اللغز في الجزء الأول، واكتشاف قاتله!، لذلك أدعوك وبناء على طلبك الأول أن تمنح

نفسك بعض الدقائق كي تأخذ نفسا عميقا وتستعيد روح د. كمال الشريف الذي سأتركك لاحقا مع رسالته التي تركها.

الساعة السادسة وخمس دقائق مساء، الشمس تميل نحو الغروب وتتأهب لتسقط على الضفة الأخرى هناك، حينها، حين تسقط، تبدأ الحكاية .

عمرو الجندي

أؤكد لك أن العالم مليء بالترهات أكثر مما هو مليء بما يستحق الكتابة عنه، في الصفحة الأخيرة اصطدمتُ بالحقيقة المُرة، بأني ببساطة مِتُّ مقتولاً، فكر قليلاً، ربما هناك مَن دفعني مِن أعلى جرف في إيطاليا، أو ربما من قام بدسِّ السم لي في مصر، ولا تتألم كثيراً إن قلت إني تعرضت مراتٍ للعضِّ من كائن لا أعرف ماهيته حتى هذه اللحظة في غابات أيرلندا المظلمة، ومن الغرائب التي وقعت لي أيضًا أن هناك أناسًا طاردوني لمدة عام كامل في مدن مختلفة: إسطنبول وجنيف وبرلين ولندن ونيو أورليانز.. كانوا بشعي الخلقة، طوال القامة، لا يرتدون إلا القليل من الثياب ويتحدثون لغةً لا أعرفها، ووصفوني أكثر من مرة بكلمة واحدة، كلمة ألمانية طويلة وشاقة في نطقها: «Vernichtungsschmerz»، وفي الحقيقة أن تلك الكلمة ألمانية - على الرغم من أنهم لا يتحدثون الألمانية كما أخبرتك - وتعني الألم الشديد، بالتأكيد ربما سمعت عن تلك الكلمة؛ فهي في المجتمع الألماني تعني الألم الذي لا يمكن تصوره، مصطلح طبي تمامًا وعلى عكس المعتاد، فأنت تصف مدى ألمك بالأرقام من 1 إلى 10، ولكن في ألمانيا الأمر مختلف، وعليك أن تنتقي كلماتك جيدًا قبل أن تخبر الطبيب بمدى ألمك

حتى يستطيع تحديد الدواء الملائم واللازم للتخفيف عنك، ولو أني أعتقد، ببساطة تامة، أنه في حالة محاولتك نطق تلك الكلمة سيكون كل شيء قد انتهى.. انتهى تمامًا.

في مذكراتي، يا صديقي العزيز، ستجد أمورًا جديدة وإرشادات مع كل قصة قد تقودك إلى قاتلي، لكن عليك أن تقرأ جيدًا، تعرف جيدًا، تنتقي الجرائم التي ستعلق بوجدانك وفكرك؛ لأنها الخيط للوصول إلى الحقيقة، والحقيقة كما نعرفها مُراوغة، تبدو ساطعة وواضحة أمامك، ولكن حين الإمساك بها تتبخَّر من أمام أعيننا وتختفي كسراب لم يكُن في الأساس إلا وهمًا في أعمق نقطة من فكرنا؛ لذلك أنصحك بأن تتمسك بعقلك وتربط الحزام جيدًا قبل أن ننطلق إلى عالمي مرة أخرى.. صديقي العزيز، على الرغم من كل شيء ما زلتُ أثق بك، تذكر ذلك جيدًا..

صديقك كمال الشريف

***

ياله من رجل غريب، في الجزء الأول من مذكراته تركني في وحدة قاتلة، رماني بسهم في فكري فأحدث ثقبًا مدمًّى لا أعرف نهايته، أشعر وكأني مُلقى في نقطة سوداء، نقطة عملاقة أقرب ما تكون إلى غرفة متشحة بالسواد القاتم، لا أستطيع حتى رؤية إصبعي المواجهة لي وأنا أرفع يدي لألوِّح بها لأحد، لأي أحد كي يساعدني أو حتى يلمحني فينتشلني من بئر تلك التجربة الجهنمية، كل ما عليَّ، ببساطة، أن ألقي بتلك الكراسة اللعينة بأهوالها من تلك النافذة وينتهي كل شيء..

أشعر بدوار غريب ولا أحد بالمنزل، أسمع دقات الساعة بدقاتها المتعاقبة في إلحاح وعزفها الأبدي ولكن انتظر.. ما الزمن؟! هل هو ذلك الماضي وهذا الحاضر وذاك المستقبل هناك؟! لا أعتقد !؛ فالزمن هو هذه اللحظة القائمة الآن، الماضي مجرد تجربة، وهم، ادعاء فارغ ينبع من فكر ضعيف، مزيَّف كزيف معرفتنا الضحلة، هذا ما تعلمته من خلال الجزء الأول، نعم.. ذلك هو الدرس الأول: إن الإنسان لا يسعى في النهاية إلا للوصول إلى القداسة، الحقيقة المطلقة وما فات في ذاكرتنا مجرد تجربة، إذن فالإنسان روح مصابة بالنسيان، موصوم بعار الهجرة بعيدًا عن موطنه الأم، وما علينا سوى التعلُّم للوصول..

يالعبقرية الرجل، يدفعني دفعًا للوصول إلى المعرفة، لقد استطاع أن ينفذ من بين أنياب الجهل ويلهبه بعلمه وتجربته الفريدة في هذا العالم، وإلا لِمَ تحمَّل الوحدة والنسيان والجحود ممَّن حوله؟! فمن يتحمل ذلك بالتأكيد يعيش عالمًا مختلفًا كما قرأت ورأيت..

اللعنة..

طرقات الباب.. هناك صراخ في الخارج.. دعوني أستطلع الأمر لدقيقة واحدة..

صمت.. صمت طويل يقطعه صوت رجل يتحدث برنة حازمة لا تخلو من ود.. لا يبدو الكلام مفهومًا.. لا يهم.. ولكن يبدو أن الأمر مهم فعلاً..

لقد عدت، لم يكن ثمة شيء والصراخ ليس أكثر من وهم ناتج عن خيالاتي المرهقة، آسف لتلك المداخلة السخيفة، لم يكن وقتها حتمًا، إلى أين وصلنا؟! نعم.. نعم أعرف، وصلنا إلى المعرفة، بل لنقُل إلى الغاية من كل ذلك.. من كل ما مررنا به وما سنمرُّ به أيضًا؛ فالغاية واضحة، لنفتح الكراسة الآن وننطلق نحو عالم صديقي المجنون، دكتور كمال الشريف، الصديق الذي مات وترك إرثًا ولغزًا وحكاياتٍ سوداءَ..

دعونا بهدوء نبدأ جزأنا الثاني..

لقد تواضعت جدا حتى ظنوا أني لا شيء .

فيودور دوستويفسكي

«کریستین»

«كريستين»..

تلك هي الكلمة الوحيدة التي كتبها الضحية قبل وفاته مباشرة، بأحرف مهزوزة ويد مرتعشة، قبل أن يلقى حتفه، وفي الحقيقة تكاد الكلمة أن تكون مبتورة عند حرف النون، يبدو أنه لم يجد الوقت الكافي لإكمال ما شرع في كتابته، لم يُعطِه الجاني تلك الفرصة كي يكتب الحقيقة الأخيرة، ولكن «كريستين» كلمة كافية تمامًا لتدلنا على مرتكب الجريمة، تلك القاتلة التي لم يمنعها ثمة شيء من تنفيذ جريمتها، ولكنها للأسف لم تتخذ الاحتياطات اللازمة لتحول ضد هرب المجني عليه في لحظاته الأخيرة ليكتب مستخدمًا دمه على زجاج الشرفة «كريستين».

وقف المحقق جيمس براون، المسؤول عن القضية، في مواجهة الجثة، وأفكارٌ كثيرة تدور في رأسه، هل أطفأ التليفزيون قبل أن يأتيه الاتصال ليقطع عليه إجازته التي سعى إليها لوقت طويل وفي النهاية لم يهنأ بها؟! هل أخبر زوجته أنه سيغيب لمدة لا يعرف مداها قبل أن يخبرها على عجل وهو يرتدي قميصه بأن عليه أن يذهب؟! لكنه يتذكر تمامًا صراخها خلفه للمرة المئة أو الألف بأنها لن تتحمَّل العيش بهذه الطريقة أكثر من ذلك. تذكَّر ابنه الصغير

«روبرت» بقلب حزين وأحاسيس متناقضة وعلم في نفسه أنه لم يكُن يومًا الأب الذي يستطيع حضور مبارياته في كرة البيسبول في المدرسة أو الحفلات التي يقوم «روبرت» بالأداء التمثيلي فيها، يشعر بالخزي من كونه محققًا ناجحًا وزوجًا وأبًا موصومًا بالفشل، أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته التي لا يتذكَّر متى أشعلها ثم نفث الدخان بغضب يكافح في إخفائه بقدر المستطاع، ثم نظر حوله ليعود الواقع برتابته وروتينيته المعهودة التي يعرفها، هنا في ذلك الجو الذي تفوح منه رائحة الموت، الأحاديث الجانبية بين مفتشي الشرطة ورجال الأمن حول حيثيات القضية، الطب الشرعي بفريقه الكامل، الذي يقوم بعمله على أكمل وجه ودون تضييعٍ للوقت.

الضحية هو الممثل الشهير الذي تصدَّرت أفلامه شباك الإيرادات لفترات طويلة «توم براكر»، الحائز على جائزة أوسكار مرتين وجائزة الجولدن جلوب ثلاث مرات، تكاد أضواء السيارات التي تكتظ بها ساحة المنزل تعميه عن تأدية عمله، عدد هائل من الصحفيين في كل مكان، تستميت الشرطة في إبعادهم عن مكان الحادث حتى انتهاء عملهم، جريمة كهذه ستصير حديث الصحف والقنوات الفضائية لفترة غير قصيرة.

هرش «جيمس» في شعره، وهذا دليل على إحساسه بالضجر، بينما مساعده «ديفيد» يرقبه من خلف نظارته الطبية كالصقر، إن «ديفيد» يكاد يكون ثلاثينيًا، لكنه يملك عددًا هائلاً من الشعيرات البيضاء المنتشرة في رأسه، صيني الأصل، لكنه ولد ونشأ في ولاية فيلادلفيا ويعمل مع «جيمس» منذ ثلاث سنوات، ونستطيع أن نقول

إنه يعرف كل صفات وطباع الرجل ويستطيع التعامل معها ببساطة، لذلك أبقى «جيمس» عليه في العمل الميداني كونه مستريحًا في صحبته ولا يتكلف أبدًا ما دام «ديفيد» موجودًا.

انتقل «جيمس» من مكانه ووقف عند رأس الجثة ثم انحنى ونظر في عينيها، كانت هناك علامة دهشة تكاد لا تُلحظ على ملامح الضحية، تلك اللحظة التي تسبق الموت مباشرة، الموت الذي يفاجئنا دومًا دون مقدمات، دون رحمة ودون أي مقاومة، إن قرع الموت بابك فماذا تنتظر؟!

جاءه أحد رجال الأمن سريعًا ووقف في مواجهته وتحدَّث معه لدقيقة واحدة وقد بدت على ملامح «جيمس» بعض الحيرة، ثم طأطأ رأسه مفكرًا وأمره بالانصراف، فقال «ديفيد» بهدوء وهو يفتح مفكرته التي غالبًا لا تفارقه: «ليس هناك أي محاولة لدخول المنزل عنوة، كما أنه لا يوجد ما يشير إلى أن أحدهم استخدم أي شكل من أشكال العنف التقليدية لتنفيذ جريمته».

كان «جيمس»، في هذه الأثناء، يبحث عن مطفأة، بينما «ديفيد» يحدثه، وقد لاحظ الأخير ذلك فجلب مطفأة من فوق منضدة صغيرة قريبة وأعطاها لـ«جيمس» فأطفأ السيجارة بها وفرك عينه بإصبعه، وتلك لمحة أخرى توحي بانغماسه في التفكير ، ثم قال بهدوء وبنبرته العميقة: «نحن هنا في منزل رجل مشهور، تتهافت عليه النساء يا ديف، بالتأكيد القاتل ليس غريبًا».

تطلع إليه «ديفيد» ثم قال: «هل تظن...».

فقاطعه «جيمس» قائلاً: «بل أنا متأكد، انظر إلى الكأسين هناك،

كما سترى أن هناك ملابس داخلية لامرأة لا أظن أنها تعمل عاملة كادحة مثلاً في هذا المنزل الفخم، وسترى في الجهة المقابلة على السجادة...»، فنظر «ديفيد» مستطلعًا في اللحظة التي قال فيها «جيمس»: «واقيًا ذكريًا من ماركة معروفة على ما أعتقد».

«إذن فالجريمة واضحة، علاقة نسائية انتهت بجريمة».. قال «ديفيد».

«لا أعتقد».. قال «جيمس» بنبرة قاطعة لكنها هادئة، ثم قال وهو يتجه نحو أحد الأرفف المكتظة بالكتب: «أعتقد أن الأمر أعقد من ذلك بكثير». تناول كتابًا من بين الكتب ونظر فيه بشيء من اللامبالاة فسمع «ديفيد» يقول: «ولكن ماذا عن كريستين؟! لقد كتب الضحية بنفسه كلمة كريستين.. أعتقد أنها إشارة إلى قاتله، تخيل معي يا جيمس، الضحية يحاول الهرب، يباغته القاتل بسكين وبلا رحمة يغرسه في صدره، يحاول الضحية الهرب، فيسرع إلى غرفة ما وبطريقة ما أيضا استطاع أن يغلق الباب عليه لطلب النجدة.. لكنه مع الوقت ومع عدم قدرته على الحركة ومع محاصرة القاتل له في الخارج يعرف أنها النهاية، فماذا تعتقد أنه سيكتب؟! سيكتب اسم قاتله بكل تأكيد.. إني لا أتخيل مثلاً أن هناك وقتًا للعبث في لحظة ستكتب فيها كلمة النهاية لحياة بأكملها، نحن لسنا في فيلم سينمائي هنا».

ابتسم «جيمس» ثم قال: «أنت محق تمامًا، لكن هذا العمل علّمني شيئًا واحدًا».

أخرج «جيمس» سيجارة أخرى وأشعلها بينما تطلّع إليه «ديفيد»

منتظرًا الإجابة فسمعه يقول والسيجارة في فمه فبدا صوته غريبا : «أنك إن كنت محقًّا فأنت تسير في اتجاه خاطئ».

تعجَّب «ديفيد» من تلك الجملة، لم يفهمها الآن ولم يفهمها قبل ذلك ولكن هذا هو «جيمس»، لا يمكن فهمه بسهولة أبدًا، بل إنه غير مفهوم على الإطلاق، له فلسفته الخاصة الغريبة والمخيفة أحيانًا، قاطع كل تلك الأفكار صوت صراخ آتٍ من الخارج، فنظر الجميع تجاه الصوت لتقتحم فتاة شقراء جميلة مكان الحادث، يلاحقها أفراد الأمن، في الحقيقة إنها لم تكُن تصرخ سوى بجملة واحدة:

«اتركوني، أنا كريستين».

* * *

كنت في عطلة صيفية، ولكن في الحقيقة أنا رجل يجد راحته الحقيقية داخل القضايا والأحداث الغامضة، وأنا هنا في أمريكا من أجل عملٍ بعض التحاليل والاطمئنان على صحتي التي أحتاج إليها أكثر من أي كائن آخر على وجه هذه الأرض، أنت تعرف جيدًا أني أعيش وحيدًا، لا زوجة ولا أولاد، ولا تتوقَّع مني أن أدخل إلى ذلك العالم الغريب بجميع تفاصيله المرهقة وأنا على كاهلي مسئوليات إضافية لا تتماشى مع تلك المهنة، أحيانًا أتساءل: لِمَ يتزوَّج البشر؟! لكن دعك من هذا الآن، كنت أجلس أحتسي قهوتي الصباحية في مقهى هادئ في مدينة لوس أنجلوس وأنت تعرف أنه من المستحيل الحصول على مكان هادئ في لوس أنجلوس، الناس هنا مرحون، طيبون، ولا يطيقون شخصًا كئيبًا، فأنت بالنسبة

لهم مرض عليهم التخلُّص منه، لا أخفي عنك أيضًا أني جئت إلى هنا بناءً على طلب صديقي القديم جيمس براون، «جيمس» من الأصدقاء المميزين، محقق بارع، جمعني به، كما تعلم، أكثر من قضية شاركتُ في فك طلاسمها ونمَت بيننا صداقة طيبة، لكن هذه المرة يبدو أن «جيمس» في غاية الانزعاج من حياته ويخطط للتقاعد في هذه السن أو امتهان أي مهنة تُمكِّنه من إيجاد الوقت للاهتمام بعائلته؛ فابنه الأكبر في الجامعة الآن وله ابنة أيضًا تدرس الموسيقى بولاية أخرى كما أذكر، كما أن لديه ولدًا صغيراً لم يخطط لإنجابه، في الصف السابع على ما أعتقد، المشكلة أن «جيمس» قرر التقاعد أكثر من مرة، ولن أتساءل عن سبب عدوله في كل مرة؛ فنحن شخصيات تُقاس حياتها بمدى الغموض والإثارة في حياتها، بالنسبة لنا الجريمة والغموض هما الحياة، دونهما نحن شخوص ميتة، بالطبع سيسمعني وأنا أحاول تهدئته ونصحه بالابتعاد عن العمل لمدة طويلة، ولكن هذا لن يحدث وكلانا يعرف ذلك جيدًا، لكن على كلٍّ حال هذا لا بُدَّ أن يحدث حتى تأخذ الأمور شكلها الطبيعي ولا نبدو كشخصيات غريبة في عالم عادي.. عادي جدًّا..

اتصلتُ به في ذلك اليوم فأخبرني أن لديه قضية مهمة ولا يستطيع الانصراف من عمله في الوقت الحالي، لكن ماذا سأفعل؟! ليس شيئًا مهمًّا بالتأكيد، لكن إحساسي ينبئني بأنه سيكون لي دور مهم، قريبًا جدًّا.. حدسي لا يكذب أبدًا كما تعرف، كما أنك تدرك أيضًا أن لا شيء يحدث معنا مصادفة، فما الذي دفعني لترك بلادي؟! صحتي؟! هراء! هناك شيء يناديني، شيء كلانا يعرفه جيدًا..

* * *

تبكي بحرقة دون توقف، تنظر بطرف عينها في اتجاه الجثة فترتجف وتجهش مرة أخرى بالبكاء، وقف «جيمس» بعيدًا دون أن يقترب منها يتأملها بهدوء دون أن تلاحظه، بينما وقف «ديفيد» بمشاعر محايدة في مواجهتها وفي يده كوب ماء محاولاً قدر الإمكان تهدئتها، ولكن على ما يبدو أنها كانت تسبح في عالم آخر، أحسَّ «جيمس»، بعد قليل، أنها قد هدأت قليلاً وقد كان «ديفيد» يتحدث إليها بعد أن جلس القرفصاء في مواجهتها، ياله من رجل رقيق في مهنة لا تتطلب ذلك النوع من الرجال.

«أنتِ إذن كريستين».. قال «جيمس» بهدوء، بقدر ما استطاع، وهو يقترب منها محاولاً أن يضفي شيئًا من اللطف في نبرته، تطلعَتْ إليه وعلى وجهها تعابير مختلطة ما بين الخوف والغضب، لم ترد، ولكنها قالت موجهة حديثها إلى «ديفيد»: «لقد كنا بمثابة حبيبين، على درجة شديدة من القرب، إني أسكن في مكان قريب من هنا، حينما سمعت كل تلك الجلبة لم أنتظر وجئت مسرعة لأكتشف الحقيقة المؤلمة، لقد قتلوه لأنهم لا يريدونه أن يتزوج بي». بدا على ملامحها تعبير يوحي بالقرف أكثر منه بالألم، ثم حدجت «جيمس» بنظرة نارية حينما سمعته يقول: «مَن أنتِ في حياة توم تحديدًا؟!».

قالت بنبرة بدت غريبة: «أنا كل شيء».

ضحكت «كريستين» بعد برهة دون سبب واضح، وبعد أن تبادل «ديفيد» و«جيمس» نظرة ذات معنى، ضحكت بشكل هيستيري غريب ووقفت في مكانها ومضت حتى وقفت في مواجهة الشرفة

التي كتب الضحية على زجاجها اسم «كريستين» ثم ابتسمت وحاولت لمس الاسم بهدوء، ولكن أمسك «جيمس» يدها وهو يقول: «أرجوكِ، لا داعي لذلك؛ فهذا دليل من الأدلة المهمة في قضيتنا»، انتزعت يدها منه بقوة وصرخت في وجهه صرخةً كادت تقتلع وجه «جيمس» وحاولت أن تجري، لكن «ديفيد» أمسكها بعد أن استفاق من دهشته فظلت تصرخ حتى أغمي عليها.

* * *

كانت «ديانا»، في تلك الأثناء، تقود سيارتها بسرعة على غير عادتها بعد أن علمت بمقتل رب عملها «توم باركر»، «ديانا» تعمل لدى «باركر» منذ خمس سنوات، وفي الحقيقة هي أحد أسباب نجاحه، وكيلة أعماله والمسؤولة عن كل ما يخص حياته الخاصة، ببساطة تعتبر «ديانا» البئر الوحيدة لأسرار «توم» بما له وما عليه، دعك من هذا.. في الحقيقة، إن «ديانا» تعرف جيدًا جميع نزواته بلا استثناء بحكم أنها تغطي على فضائحه الجنسية بقدر ما استطاعت، ففي إحدى المرات أذاعت الصحف خبراً عن مرافقة «توم» إحدى القاصرات؛ حيث قام بملاطفتها وانتهى الأمر بممارسة الجنس معها، كانت فضيحة بمعنى الكلمة ولكن «ديانا» استطاعت أن تقوم بحملة صحفية واسعة تؤكّد للجميع أن الفتاة نصابة ولم تُطلع «توم» على سنها الحقيقية، وانتهى الموضوع بعد صراع طويل في صالح «توم»، إذن فليس كل القوادين رجالاً! أليس كذلك؟!

اقتحمت المكان مهرولةً بطولها الفارع وبشرتها البيضاء الناصعة وشعرها الأسود المسترسل على كتفيها العاريتين؛ حيث ما زالت

ترتدي فستان سهرة يبرز نحريها الناصعين، في الحقيقة أن «ديانا» كانت جميلة بحق، وذلك الأمر أثار سؤالاً لدى «جيمس» بمجرد رؤيتها: ما الذي دفع امرأة جميلة كـ«ديانا» للعمل لدى عربيد كـ«توم براكر»؟! في الحقيقة، إن هناك إجابات متعددة، مثلاً: من أجل المال، أو من أجل الشهرة والعلاقات العامة المتعددة التي تكتسبها من وراء التصاقها به، ربما من أجل كل ذلك، وربما هناك سبب خفيّ، على العموم كل شيء ستظهر حقيقته قريبًا.

بمجرد أن رأت جثة «توم براكر» أشاحت بوجهها بعيدًا، وسقطت منها عبرات وأحست بدوار مفاجئ فجلست على أقرب أريكة وسط زحام رجال الشرطة، اقترب منها «جيمس» وقال: «أنتِ ديانا وكيلة أعماله، أليس كذلك؟!»، أومأت برأسها بالإيجاب دون أن ترد وما زالت دموعها تتساقط في صمت. «لقد عرفتك من الصور المتناثرة هنا، يبدو أنكما كنتما على علاقة طيبة، كما أن الملف لديَّ يؤكد مدى قربك منه إن كان ذلك التعبير مقبولاً لديك». أنهى «جيمس» كلماته بهدوء.

قالت بهدوء محاولةً السيطرة على مشاعرها: «نعم، لقد كنا صديقين أكثر من شريكين في العمل».

«أتفهَّم ذلك، وأقدِّم أسفي لما حدث له، لقد أمتعنا توم لسنوات بأعماله التي لن ينساها عشاقه».. قال «جيمس» بنبرة آسفة مزيفة.

استفاقت «كريستين» في هذه اللحظة، وبمجرد أن رأت «ديانا» هرولت تجاهها وهي تصرخ وحاولت التهجُّم عليها، لكن «جيمس» استطاع أن يمنعها ببنيانه القوي، وبينما كانت تصرخ قالت: «أنتِ

السبب أيتها العاهرة، أعدِموها، إنها هي القاتلة».

* * *

رنَّ الهاتف وتراقص معه قلبي، كنت أعرف يا صديقي أن الوقت لن يطول ليرنَّ هاتفي، إنه «جيمس» بكل تأكيد: «نعم.. أهلاً جيمس.. أفهم.. أين العنوان؟! ستأتي متى؟! بالضبط كما حدثتك.. اسمها ديانا ؟ .. بالتأكيد لن أتحرك.. سأكون بخير.. لا تقلق أبدًا على رجل يعدو خلف الموت بكامل طاقته.. مع السلامة».

أنهيت الاتصال مع «جيمس» مبتسمًا ومستعيدًا تلك الروح التي طالما جالستني في رحلاتي عبر دهاليز الجرائم والمجانين، الآن فقط أستطيع أن أتنفَّس، كوب قهوة آخر وسأكون مستعدًّا، «ديانا»، نعم «ديانا»، أعتقد أنه اسم جميل تحمله شخصية تجمع كل التناقضات في آنٍ واحد، شخصية أتوق حقًّا لملاقاتها، إني في انتظارك يا «ديانا».

لم يمر وقت طويل حتى توقفت سيارة مكشوفة من نوع «مرسيدس» في مواجهتي، تقودها سيدة ثلاثينية ذات جمال أخَّاذ، ابتسمَتْ في وجهي لثانية بشكل عصبي فنهضت من مجلسي ومضيت نحوها ثم قلت: «أنتِ ديانا، أليس كذلك؟!».

فقالت: «بلى، وأنت دكتور كمال الشريف؟!»، أومأت برأسي بالإيجاب، فقالت: «لقد طلب مني السيد جيمس أن أُقلَّك إليه.. يمكنك الركوب».

فتحتُ باب السيارة وركبتُ بهدوء بجوارها، لا أعلم يا صديقي

لِمَ لا تأسرني النساء كما تعتقد! في الحقيقة، إنهن بالنسبة لي مثل تماثيل جميلة ينحتها نحّات بارع أو لوحات جميلة لفنان مجنون، لهن سحرهن الخاص، لكنهن في الحقيقة لا يجعلنني مصابًا بالعمى؛ فخلف تلك البدلة الآدمية التي يرتدينها هناك وحوش غريبة وغامضة تنتظر افتراسك، تلك هي الحقيقة ولا شيء غيرها.

«أنت تعمل مساعدًا للسيد جيمس؟!».. تساءلت «ديانا» بلهجة عادية.

فنفيت دون أن أضيف كلمة واحدة، ثم أردفتُ بعد وهلة لكسر الصمت: «في الحقيقة، أنا صديقه، وجئت من مصر خصيصًا لزيارته، ويبدو أنه استدعاني لنتناول الغداء معًا في وقت راحته، أنتِ تدركين مدى انشغال مَن هم في مركزه، خصوصًا في بلد يكتظ بالجرائم الغريبة».

ضحكت «ديانا» ضحكة عصبية ثم توقفت فجأة بالسيارة وتلفتت حولها في حيرة من أمرها ثم نظرت لي نظرة مترددة بدا فيها التساؤل ثم أشاحت بوجهها بعد أن أيقنت أني لن أستطيع تقديم المساعدة، ولكن المساعدة في ماذا؟! فقلت: «ماذا هناك؟!». فقالت بهدوء: «لقد أضعت الطريق كعادتي ولا أعرف الاتجاهات؟!».

ابتسمتُ بهدوء وقلتُ: «هل تضيعين الاتجاهات غالبًا؟!».

فقالت: «نعم للأسف، كما أنه يوم مظلم، فلقد توفي رب عملي...»، وقصت عليَّ القصة كاملةً حتى تلك اللحظة التي جاءتني فيها لتقلّني إلى «جيمس». في الحقيقة، إن الموضوع أشعل تفكيري كاملاً، كنت أحس أن في قصتها شيئًا ناقصًا؛ فلقد عرفت

بعد ذلك أنها لم تذكر ثمة شيئًا عن الفتاة «كريستين» ولا فيما يخص مهاجمة الأخيرة لها، لاحظتُ أنها تغيب كثيراً عن الوعي وتسبح داخل أفكارها الخاصة، واستغرق الأمر ساعة ونصف الساعة تقريبًا حتى نصل إلى المكان، وفي الحقيقة إن الطريق لا يستغرق أكثر من نصف ساعة، فلقد ضعنا أكثر من مرة وتشتَّتْ «ديانا» أكثر من مرة، وبكت وضحكت لمرات كثيرة، ولأكون دقيقًا، فقد بدت مكتئبة ثم مبتهجة بشكل غير طبيعي، حيث إننا خلال طريق خالٍ تمامًا، رفعت يديها وتركت عجلة القيادة وقد بدت في أوج سعادتها، إحساس عظيم بالحرية انتابها وكأنها تخلَّصت من هم ثقيل أو ربما قلق كبير، في الحقيقة أنا لا أعرفها جيدًا، ولكني أيضًا لا أشعر بالراحة وعجلة القيادة تتصرف طبقًا لمزاجيتها التي قد تودي بحياتنا وإلى الأبد.

* * *

«لقد أمرت بنقلها إلى أحد المستشفيات، حالتها سيئة للغاية يا كمال.. وحتى الآن لا أستطيع الجزم بأي شيء، لكن حدسي يخبرني بأن تلك القضية ستفجِّر الكثير من الأمور التي لن تخطر لنا على بال».. قال «جيمس» وهو يحتسي قهوته في مواجهة الجثة.

«أفهم من كلامك أنك استدعيتني إلى هنا من أجل القضية».. قلت بنبرة لعوب، فهزَّ «جيمس» رأسه مستنكرًا ثم قال: «كمال، أرجوك.. لا تستخدم تلك الألاعيب معي؛ فأنا لست مضطرًا لطلب المساعدة». ثم نهض من مكانه واقترب مني وهمس وكأنه يودعني سرًّا: «في الحقيقة يا كمال، إني لستُ على ما يُرام، فاقد لتركيزي تمامًا وأكاد أنفجر من فرط التفكير في أمور لا تتعلق بالعمل، أحيانًا

أتساءل: لِمَ تزوجت من الأساس؟! أرجوك لا تقُل شيئًا؛ فأنت لا تختلف عني كثيرًا.. دعك من هذا الآن.. إني أفتقدك بشدة، ولكي تصفو لنا الأجواء علينا أن نفك طلاسم تلك الجريمة». ثم اقترب من الضحية وأشار بيده بشكل غاضب: «انظر إليه، إنه ينظر إلينا كما ترى متحديًا وساخرًا من تأخُّرنا في الوصول إلى قاتله، لم يكُن شخصًا وديعًا كما يظهر على الشاشة، وأؤكد لك أنه شخص أقل ما يقال عنه إنه يستحق ما ناله، نهاية مستحقة تمامًا، وفي الحقيقة لا يهمني إن كان يستحق تلك النهاية أم لا، لكن الأكيد أن حدسي ينبئني بأن ذلك الرجل لم يكُن قديسًا، ولا أعتقد أن ما كتبه هناك كما ترى هو طريقته لإخبارنا بقاتله كما يقول مساعدي ديفيد، الأمر أعقد من ذلك». رشف القهوة فبدت مُرَّة فوضعها جانبًا بغضب، فقلت بهدوء: «ولِمَ لا تكون القضية فعلاً سهلة وأنت تريد تعقيدها؟!».

فردَّ متذمِّرًا: «لأنه لا توجد قضايا من هذا النوع بمثل تلك البساطة».

إنه على على حق تمامًا، فكرتُ قليلاً وأنا أرصد بعيني تفاصيل المكان بقدر المستطاع وسط الفوضى التي أحدثتها الشرطة: «هناك كأسان، وأعتقد أنه نوع فخم من الخمر، إحداهما طُبعت عليه آثار شفاه أرجوانية من أثر الماكياج، الخمر تبدو فاخرة أيضًا، إنها الشامبانيا على ما أعتقد، توجد ملابس داخلية أيضًا، صديرية حمراء قاتمة من ماركة معروفة ولباس داخلي يكاد يكون خيطًا من الماركة نفسها، لا توجد أي آثار للعنف، سوى منضدة صغيرة انقلب كل ما عليها، كما أن الضحية لا يبدو عليها أي أثر للمقاومة، يبدو أنه

بوغت بتلك الضربة النافذة في صدره، يد قوية وثابتة مَن تستطيع فعل ذلك الجرم، أما الغرفة الأخرى، التي هرع إليها الضحية، فلا يوجد بها الكثير: آثار دماء على الأرضية تعكس المسافة التي ترنَّح خلالها حتى استطاع أن يصل إلى الموضع الذي كتب من خلاله رسالته.. الغريب أن القاتل تركه دون أن يُجهز عليه بعد أن ضربه تلك الضربة القاسية، الجريمة غريبة لكنها لن تكون كذلك وأنا هنا».

قاطع أفكاري صوت «ديانا» وهي تتحدَّث بعصبية إلى «ديفيد» فتطلعتُ إليها لأتفحَّصها مرة أخرى، لقد نسيت أمرها تمامًا، تبدو مرتبكة والخوف والحزن يتملَّكانها، الصدمة بالتأكيد قوية، علاقتها بـ«توم باركر» تتعدَّى كونها مجرد وكيلة أعمال، أنىَّ لها بهذا الثبات الغريب؟! لكنه يبدو ثباتًا هشًّا! ببساطة تصحو من النوم على خبر موت أحد أصدقائك المقربين، خبر مفزع لا يعطيني الفرصة لأرتدي أفضل ثيابي، لكنه يجعلني بالتأكيد غير قادر على التركيز في التفاصيل البسيطة، الطرق، الاتجاهات، لكن هناك سؤالاً مهمًّا: لِمَ أرسل «جيمس» «ديانا» لتقلَّني بدلاً من أحد رجالات الشرطة هنا؛ فمعظمهم يقف بلا فائدة تُذكر؟!

استدرتُ تجاه «جيمس» ويبدو أنه اكتشف أنني أفكر، خصوصًا حينما لمحني وأنا أرمق «ديانا» فاقترب مني وعيناه مركزتان عليها ثم قال بهدوء: «لأنها الشك الغريزي يا صديقي يخبرني بأنها مفتاح كل شيء».

ابتسمتُ ابتسامةً لا تُلحظ ثم قلت: «أحتاج للخروج قليلاً كي

أتنفس».

«تقصد لزيارة كريستين؟!».. قال «جيمس» بخبث.

فقلت مبتسمًا ابتسامة عريضة: «نعم، لزيارة كريستين».

* * *

«أنا وتوم على علاقة منذ مدة ليست بالقصيرة، إنه يحبني ويرسل لي الخطابات والصور الموقَّعة من وقتٍ لآخر، أنتم لا تدركون حقًّا مدى تعاستي بعد فقدانه، لقد قتلته العاهرة انتقامًا مني؛ لأني ببساطة أفضل منها». أنهت «كريستين» كلماتها بنبرة غاضبة موجهة اعترافها إلى «جيمس» الذي جلس بجوار سريرها داخل أحد المستشفيات بينما وقفتُ قرب الباب أحلِّل مدى صدقها، أتأملها لكي أستطيع تحليل شخصيتها فسمعتها تسترسل باكية:

«لقد ذهبت إلى توم هذا المساء، وكان وحيدًا تمامًا وتناولنا كأسين من الشامبانيا، لكنه كان مُجهدًا فطلب مني أن أغادر بلباقة، ولأني لا أريد التسبُّب في إغضابه ذهبت دون مناقشة».. قالت كريستين. «أؤكد لكم أنه أحبني».

فقال جيمس: «هل لي أن أسألكِ سؤالاً شخصيًّا؟!»، هزت رأسها كقطَّة تتمسح في صديقها فقال «جيمس» بهدوء: «هل حدثت بينكما علاقةٌ قبل أن تغادري المكان؟!».

لم تشعر «كريستين» بأي نوع من الخجل، لكنها قالت: «لكم أتمنى لو كان ذلك حدث».

«أفهم من كلامك أنه لم يحدث شيء بينكما في هذا التوقيت،

أو هذا اليوم تحديدا!».. قال «جيمس».

«لقد حدثت بيننا بالطبع أشياء كثيرًا ولقد طارحته الغرام أكثر من مرة في جميع أنحاء المنزل، لكن تلك الليلة لم يحدث ثمة شيء بيننا». أنهت كلماتها وبكت بحرقة، حاول «جيمس» تهدئتها ثم قال: «ما الماركة التي تفضلين ارتداءها؟ أقصد نوع ملابسك الداخلية».

قالت «كريستين»: «لا ألبس ماركة معينة، لكني بحكم عملي لا أستطيع الإنفاق بشكل كبير على مثل تلك الأشياء».

فقال «جيمس»: «ولكن فتاة في صحبة توم باركر لا بد أن تتأنَّق لتنال رضاه واستحسانه، أليس كذلك؟!».

فقالت «كريستين» بحدة وقد التمعت عيناها بالغضب: «بالتأكيد توم لا يهتم بتلك الأشياء، ولا أعرف لِمَ تستميت يا سيد جيمس في إنكار علاقتنا».

«لأن آخر شيء فعله توم هو كتابة اسمك بدمائه ليخبرنا ببساطة عن قاتله كما رأيتِ سابقا يا كريستين».

فانهارت «كريستين» ودخلت في نوبة هيستيرية وهي تصيح: «لم أقتله.. لم أقتله، ولا أعرف لماذا فعل ذلك!».

دخل عدد من الممرضين والأطباء إلى الغرفة لمساعدتها، وعرفنا أنه لا جدوى من وجودنا في هذه الأثناء، لكني توقفتُ قليلاً مع الطبيب المشرف على حالتها ودار بيننا حديث قصير وقد ألهمني تشخيصه للحالة، في الحقيقة ما أخبرني الطبيب به كان

مفتاح الحل.

* * *

مرَّ يومان وأنا و«جيمس» نحفر بكامل طاقتنا في الصخر حتى نصل إلى حل اللغز، وقد وصل تقرير الطب الشرعي الذي أفادنا كثيراً، «توم باركر» مات بعد فترة لا تتعدى ثلاث دقائق من تلقيه طعنة نافذة في الصدر، وهذا ما يؤكد النظرية التي تؤكد هروبه إلى الغرفة المجاورة لإنقاذ نفسه، السلاح المستخدم جديد ولم يُستخدم في شيء قبل ذلك، يبدو أن القاتل جهَّزه خصيصًا للقيام بهذه المهمة فقط، الضربة قوية؛ حيث استطاعت أن تنفذ إلى داخل صدره لتملأ رئتيه بالهواء ويموت في الحال، يعني أن الضربة جاءت من يد قوية وثابتة كما اعتقدت سابقًا، الملابس الداخلية تتطابق مع الـDNA الخاص بـ«كريستين»، كما أن البصمات على الكأس الأخرى تعود لها أيضًا، بينما الكأس الخاصة بـ«توم» لا توجد عليه سوى بصماته، وحسب أقوال الشهود العيان فقد تمت رؤية «كريستين» قبل وقوع الجريمة بنصف ساعة تدلف إلى داخل منزل الضحية مسرعة وقد بدا عليها التوتر، كما أن الحارس الخاص الذي يتولَّى حراسة المنزل في الخارج يؤكد أنه لم يدخل المنزل أي شخص آخر سوى «كريستين» أيضًا، وقد خرجت من المنزل متوترة، حتى إنها لم ترد عليه حينما سألها عن «توم»؛ حيث كانت شاردة في عالم آخر باديا عليها التوتُّر.

المفاجأة في الأمر أن «كريستين» قد خضعت لفترة طويلة للعلاج من «الشيزوفرينيا»، وقد قُمنا بزيارة الطبيب الذي كان مسؤولاً عن

حالتها، وفي الحقيقة إنه كان ودودًا للغاية معنا، أخبرنا ببساطة أن «كريستين» كانت تعاني «شيزوفرينيا» متقدمة؛ حيث تعرَّضت للاضطهاد بشكل مفجع من قِبَل والدها الذي مات أمام عينيها في حادث سيارة بشع، لقد مكثت في المشفى الصحي سنتين كاملتين تتلقَّى خلالهما العلاج، وفي الحقيقة إنها كانت تعاني هلوسات سمعية غريبة؛ فكثيرًا ما كانت تقول إنهم قادمون. ولكن بالطبع، كما نعرف، فالمريض بهذه الحالة لديه عالمه الخاص، كما أنها كثيرًا ما كانت تصرخ مؤكدة أنها ترى أباها المتوفي يجري وراءها لينتقم منها لسبب غير واضح، لكنها مع الوقت وتوفير العلاج اللازم استطاعت أن تُشفى بشكل كبير وتم إطلاق سراحها مع الاستمرار في تناول الدواء. أكد لنا، بلطف، أنها شخصية طيبة، ضحية لشخص مهووس فاشل سعى إلى دفن مآسيه وسقطاته في طفلة لا يد لها في شيء.

سألتُه سؤالاً واحدًا: «أنت تدرك جيدًا يا دكتور أن فتاة مثل كريستين مصابة كما عرفت منك بالفصام، لها جانب عنيف، وكلانا يدرك جيدًا أن ذلك الجانب معزَّز لديها بمفاهيم تجعلها في أوج استعدادها لارتكاب أي جريمة من أجل مصلحتها، أو هذا ما تتصوره، لكن بالنسبة لكريستين، هل تعتقد أنها قد تقوم بفعل إجرامي؟!».

«دكتور كمال.. في هذه الحالة لا نستطيع الجزم بشيء محدد، لكن الطب النفسي، كما تعرف، واضح في تلك المسألة؛ إن الأعمال الإجرامية الناتجة عن الإصابة بالفصام متعددة ومسجلة تاريخيًّا، لكن كريستين لم يسبق لها أبدًا أن ارتكبت أي نوع من الجرائم،

وأتذكر جيدًا أيضًا أنها تعرَّضت للتحرش في إحدى الحانات، وقد قدمت دعوى قضائية بخصوص هذا الأمر، أتذكَّر أن حالتها كانت سيئة حينما جاءت لي وارتأيتُ أن تبقى في المشفى يومين لتحضر الجلسات الجماعية أملاً في التخفيف عنها، وهذا ما حدث بالفعل، كريستين بالنسبة لي حالة استثنائية؛ فهي في الحقيقة تسعى بكامل إرادتها إلى أن تعيش حياة طبيعية بعيدًا عن ذلك العالم المجنون، وربما ذلك السبب ما أنقذها من براثن العقاقير والأيام السوداء التي مرت بها».

شكرناه وانصرفنا مفكرَين، وقد كان «جيمس» في هذا اليوم غائبًا داخل أفكاره لا يتحدث كثيراً، ذهبت معه إلى منزله والتقيت أولاده الذين أعرفهم جيدًا، وجلست في صحبة زوجته «لويزا»، محاولاً تهدئتها بقدر المستطاع وإثناءها عن قرار الطلاق العالق بذهنها، أعرف أني أرتكب جريمة أخرى؛ لأني أدرك تمامًا أن «جيمس» لن يتغيرَّ إلا إذا، لا قدر الله، قرَّر التخلُّص من عقله، وتلك هي الحالة الوحيدة التي سيصبح فيها «جيمس» صالحًا للحياة الأسرية؛ فالمعاتيه فقط هم من يطيقون تلك الحياة.

* * *

وقف «جيمس» ينظر لي وعلامات استفهام كبيرة تلوح على وجهه، حتى الآن لم أتحدَّث معه بشأن القضية بشكل احترافي، كلها مجرد مناقشات عادية حول القضية لا أكثر، لكن ما حدث هذا اليوم كان غريبًا حقًّا، اطمأننا على صحتها على أن نعود حينما تهدأ، فقد حاولت الانتحار ولكن تم إنقاذها في اللحظة الأخيرة بفضل

الله، لقد قامت المجنونة بتناول كمٍّ هائل من الحبوب المنومة، ببساطة ودون مقدمات أقدمت على الانتحار، وفي الحقيقة هذا ما كنت أنتظره، لكن ينقصني بعض الخيوط البسيطة لتصبح قضيتي جاهزة للحل، وقف «جيمس» في مواجهتي وببساطة قال: «إني لم أعد أفهم شيئًا».

فقلتُ ببساطة: «محاولة ديانا الانتحار شيء توقعته، لكني لم أكُن أتصوَّر أنه سيكون بهذه السرعة».

قال «جيمس» مستغربًا بحدة: «ماذا تعني؟! هل كنت تعرف أنها ستحاول الانتحار يا كمال؟! أرجوك !، لِمَ تبدو غامضًا دائمًا ولا تطلعني على ما يدور في خلدك ببساطة؟!».

فربتُّ عليه وقلتُ: «لنتناول القهوة». فنظر لي بعينين بدا فيهما الإنهاك واضحًا ثم طأطأ رأسه وسار بجانبي، فقلتُ: «هل اطلعتَ على ملف ديانا؟!».

قال «جيمس»: «بالطبع، لقد تحققتُ منها، لقد كان اسمها قبل أن تغيره: أليس بولدوين، وُلدت في ولاية كنساس، لكن في الحقيقة لم يذكر ملفها أكثر من كونها كانت تعمل في عالم الموضة لفترة قصيرة كعارضة، ثم قامت بتغيير اسمها بعد أن فشلت في علاقة غرامية مع المصمم الفرنسي ستيفان دينفو حتى التقت توم باركر، وبحكم أن توم زير نساء، كما تعلم، فقد أُعجب بها وقرر أن تعمل لديه، وفي الحقيقة أنها أثبتت أنها مديرة ناجحة فقرر أن يوليها أعماله وإن أردت الدقة فقد قرر أن يوليها حياته بأكملها».

«لكن لا يوجد أي شيء عنها قبل أن تعمل عارضة أزياء، أقصد

في فترة طفولتها»، تساءلتُ وأنا أنظر في عينيه، هز رأسه بالنفي ثم قال: «لا شيء مهمًّا على الإطلاق، ملفها نظيف تمامًا، لا يوجد فيه سوى بعض المخالفات المرورية لا أكثر، كما أنها من الناحية الصحية، لا يوجد ما يشوبها، كل ما يشل تفكيري الآن، لِمَ أقدمت تلك المجنونة على الانتحار؟!».

فقلتُ بشكل قاطع: «الإحساس بالذنب».

تطلَّع لي «جيمس» بنظرة تكاد الدهشة تقفز منها ثم ردد وكأنه يحدِّث نفسه: «الإحساس بالذنب! ولكن لماذا؟! لأنها لم تستطع أن تنقذ توم؟!»، فكَّرَ قليلاً ثم قال مستنكرًا: «بالله عليك يا كمال، أنت بالكاد تهذي!».

ابتسمتُ ثم نظرتُ في عينيه نظرة معاتبة فهزَّ رأسه وضحك ثم قال مستسلمًا: «هات ما عندك إذن».

«قبل أن أفصح عن أي شيء، هناك بعض الأمور التي يجب التأكُّد منها أولاً، نحن نتحدث عن حياة شخص هنا، ولا بُدَّ لنا من تحرِّي الدقة، أليس كذلك؟!»، فأومأ برأسه بالإيجاب مبتسمًا.

* * *

جلسنا في غرفة معيشة بسيطة، لكنها منظَّمة ومرتَّبة داخل منزل متهالك على أطراف مدينة كنساس، جاءتنا سيدة عجوز تبدو عليها الطيبة وهوان الصحة، حيَّتنا بهزَّةٍ من رأسها ثم جلست في مواجهتنا، قال «جيمس» بهدوء: «سيدة صوفيا، أنا محقق الشرطة جيمس براون، وهذا صديقي الطبيب كمال الشريف، وقد جئنا بشكل ودِّي

من أجل التحدُّث معك بخصوص ديانا أو أليس، كما تفضِّلين».

فقالت العجوز بهدوء وبنبرة واهنة: «ماذا تريدان أن تعرفا؟!».

قلت: «أنتِ جدة ديانا، أليس كذلك؟!». فأجابت بهدوء: «نعم».

فاسترسلتُ قائلاً: «أين والداها؟!». فقالت السيدة بأسى واضح: «لقد تُوفيا منذ مدة طويلة جدًّا، حتى إن أليس لا تكاد تتذكرهما».

«وهل لي أن أسال كيف تُوفيا؟!».. قلت بهدوء ناظرًا في عينيها اللتين بدا فيهما الأسى والتمعتا ببريق الذكريات المؤلمة فقالت بهدوء: «لقد كانت والدة أليس تعاني اكتئابًا شديدًا في الفترة الأخيرة قبل وفاتها، كانت غريبة ولا تستطيع أن تأخذ قرارًا واحدًا، ازداد اكتئابها بشكل كبير، أعتقد أن أليس لم تكُن قد بلغت ست سنوات في هذا التوقيت، لكني أتذكَّر جيدًا أن والدتها كانت تمرُّ بمراحل متفاوتة غريبة، تارةً تبدو في غاية الاكتئاب وسرعان ما تليها مباشرةً حالةٌ من الابتهاج غير الطبيعي وغير المبرَّر أيضًا، أقصد أنه لا يتناسب تمامًا مع ما مرَّت به من اكتئاب، كما أنه لم تكُن هناك أسباب واضحة تدعوها إلى تلك البهجة المفرطة، كما أنها أصيبت قبل وفاتها بحالة من البكاء المستمر حتى...».

فقال «جيمس»: «حتى ماذا يا سيدة صوفيا؟!».

«حتى وجدَتْها أليس مشنوقةً في غرفتها، لقد انتحرت بكل بساطة، وفي الحقيقة أنا لم أتوقع شيئًا آخر».. قالت السيدة بحزن بالغ.

فقلتُ: «وهل تتذكر أليس ذلك الحادث؟!».

«لا أعتقد؛ لأنها لم تذكره أبدًا طيلة الفترة التي أقامتها هنا».

«وهل مكثت لديك فترة طويلة؟!».

«نعم حتى أنهت دراستها الثانوية والتحقت بالجامعة، وبعدها لم أرها سوى مرتين أو ثلاث على الأكثر ولا أدري ماذا أصابها؛ حيث ظلت تتملَّص مني وتتنكَّر لي، وفي المرة الأخيرة التي ذهبتُ إليها طردتني بكل أسف».. قالت السيدة بحزن وأسى ثم أضافت بشيء من النفور: «أرجو منكما أن تنصرفا الآن؛ فحالتي الصحية لا تستطيع تحمُّل أكثر من ذلك».

لديها كل الحق طبعًا في ذلك، ولكن قبل انصرافنا وعند الباب قلتُ لها: «سؤال أخير لو سمحتِ لي».

فنظرت لي مستنكرة ولكنها أذعنت فقلت: «كيف مات والدها؟!».

فقالت بغضب يشوبه الحزن: «لا أعرف يا دكتور كمال لِمَ تصر على تقليب الذكريات السيئة لامرأة عجوز ولكن لتستريح لقد مات في حادث سيارة، انقلبت به من فوق جرف وكانت أليس حينها في الصف الأخير قبل أن تغادرنا إلى الأبد».

شكرناها وانطلقنا في طريقنا، فكرتُ هنيهة ثم قلت: «إنها سيدة متناقضة».

فتأملني «جيمس» ثم قال: «أتعني لأنها ذكرت أن ديانا لا تتذكَّر شيئًا عن والديها على الرغم من أن والدها توفي وهي في السنة النهائية من الدراسة؟!».

«ليس ذلك فقط؛ فعلى الرغم من أنها تدرك أن حادث ابنها لم يكُن طاهرًا أو نظيفا كما ذكرت العجوز، وعلى الرغم من جحود ديانا، فإنها تصر على إخفاء شيء في نفسها، ببساطة تامة لِمَ تنكرت ديانا بمثل هذه البساطة لامرأة تربَّت في كنفها وتكفَّلت برعايتها أعوامًا؟!».

تطلَّع لي «جيمس» مفكرًا ثم قال: «أنت تعرف الجدات، كائنات شرسة إن حاولتَ الاقتراب من أمن أحفادهن».

فصحتُ قائلاً: «بالضبط».

لم يمر وقت طويل حتى طلبتُ من «جيمس» أن يبحث في حياة توم باركر؛ لأن هناك حلقة مفقودة، كما أخبرته أني سأذهب لزيارة «كريستين»، فإما أن أنقذها وإما أن يُحكم عليها بالسجن، سواء خلف القضبان أو في مصحة للأبد.

* * *

«لقد كان هناك حفل في منزله تلك الليلة، حفل كبير، وكان مدعوًّا به كثيرٌ من المشاهير، لقد دعاني توم أكثر من مرة في خطاباته المتعددة التي يكتبها لي لكثير من حفلاته»، بدت حالمة فرقَّت ملامحها وهي تقول: «لقد كان يكتب الخطابات من أجلي أنا فقط، يتّبع الموضة القديمة لإرضائي ولكي نقضي تجربة مختلفة متجددة بروح أصالة الماضي»، سكنت هنيهة ثم أردفت: «ولأني شخص منعزل يحب الهدوء كنت أنأى عن تلك الحفلات الصاخبة، ولكن في ذلك اليوم قررت أن أذهب إليه حتى لا يملَّ من طلبه المتواصل لملاقاتي».. قالت «كريستين» وقد بدت أكثر هدوءًا عمَّا ذي قبل.

«لقد قلتِ إنه أرسل إليك خطابات سرية كي لا يعرف أحدٌ بحكايتكما.. أين تلك الخطابات يا كريستين؟!».. تساءلت وأنا أعرف الإجابة مسبقًا، فسمعتها تقول: «ألا تصدقني؟!».

فقلت مواسيًا: «كريستين، أنا أكثر شخص يهتم لأمرك في هذا العالم، كوني على ثقة من ذلك». فأجابت: «للأسف لقد قُمتُ بحرقها بناءً على طلب توم؛ حتى لا تتسبَّب تلك الخطابات يومًا في التشهير به».

أومأت برأسي متطلعًا إلى عينيها الزائغتين، ثم قلت: «وكيف كانت لقاءاتكم معًا؟!».

قالت «كريستين» وابتسامة حالمة على وجهها: «لقد رأيتُه أول مرة في حفل ليلي، كان فيه كثير من الفتيات، والفتيات فقط، لكنه أُعجب بي أنا، وليلتها حدثت بيننا أشياء كثيرة، هل تتخيل ما أقوله لك؟! لقد اختارني أنا بالذات من بين الجميع، لقد فضّلني عليهم».. ثم شرعت في البكاء بشكل صامت فأخذتُ نفسًا طويلاً وحاولتُ تهدئتها ثم قلتُ بعد أن شعرتُ أنها أفضل قليلاً: «هل رأيتِ ديانا في تلك الحفلة؟!».

بدا عليها الغضب وهي تقول: «نعم.. تلك العاهرة لا تفارقه أبدًا، تمشي معه كظله، لكني أتذكر جيدًا أنها كانت ودودًا معي في بادئ الأمر، حتى إنها عرَّفتني إلى توم الذي بدا مهووسًا بجمالي وشخصي، وبعد ذلك تعددت اللقاءات».

«كيف كانت تتم لقاءاتكما يا كريستين؟! شخص مثل توم مشغول دائمًا، الإعلام يطارده في كل مكان، هل كنتِ تأتينه سرًّا

مثلاً، أم أنه كان يحادثك هاتفيًا، أم عن طريق الحساب الشخصي له عبر الإنترنت، أم أنك تقتحمين المنزل في أي وقتٍ شئتِ؟!».

«لا أبدًا.. لقد كانت تلك العاهرة تنظِّم جميع مواعيده، بما فيها لقاءاتنا أيضًا؛ فأحيانًا ما تتصل بي وتخبرني بأن توم في انتظاري، حينها أرتدي ملابسي وأذهب إليه، ويمكنك أن تسأل سام، حارس المنزل الشخصي، لقد رآني عدة مرات معه إن لم تكُن تصدقني، كما أني أخبرتك أنه في الفترة الأخيرة كان يرسل لي الخطابات مع أحد العاملين لديه بعيدًا عن تسلُّط ديانا، أعتقد ذلك، لقد كان يقول دومًا إنه يحب أن يعيش قصة حب كلاسيكية مليئة بالخطابات والهواتف القديمة».

فقلتُ مبتسمًا: «إني أصدقك تمامًا يا كريستين، ولن أتوانى عن الإمساك بالقاتل الحقيقي، لا تقلقي من ذلك أبدًا، ولكن قولي لي، منذ متى وأنتِ تعرفين توم؟ وأعني بسؤالي: منذ متى بدأت لقاءاتكما؟!».

قالت «كريستين»: «منذ ثلاثة أشهر تقريبًا، ولقد انتهى الحلم الآن».

نظرتُ لها طويلاً ثم قلت: «أدعو الله أن يمنحني القوة والسداد لإنقاذك، ولكنْ سؤال أخير قبل أن أذهب». فأومأت برأسها كقطة ضالة منهكة من كثرة السير في بلاد غريبة، فقلت: «ألم تلاحظي خلال لقاءاتك بتوم شيئًا غريبًا؟!». لم تفهم السؤال فأعدتُ صياغته فقلتُ: «أعني: ألم تلاحظي مثلاً أن هناك تفاصيل مفقودة في لقاءاتكما، مثلاً أنه قال لكِ شيئًا ثم نسيه أو أنه مثلاً نسي تمامًا أنه

سيقابلك في ليلة معينة؟!».

دُهشت «كريستين» واختلجت عيناها ثم قالت: «نعم.. نعم.. في كثير من الأحيان كان يبدو عليه أنه نسي تمامًا ميعاد لقائنا، وأحيانًا ما أجده متفاجئًا بوجودي، لكنه لم يرفضني أبدًا».

ابتسمتُ وربتُ عليها ثم انطلقت في طريقي خارج المستشفى حتى جاءتني تلك المكالمة.

***

«كمال.. لن تصدق ما وجدته». كان «جيمس» يصيح عبر الهاتف: «لقد كنتَ محقًا، أنت عبقري». فقلت سريعًا متلهفًا: «هات ما عندك».

فقال: «لقد تورَّط توم، قبل شهرته العالمية، في جريمة تحرُّش بفتاة قاصر، كما أكد لي الطبيب الخاص به، بعد ضغط طويل عليه، أن توم كان يعاني مشكلات نفسية قديمة خاصة بطفولته، ليست مشكلات مقلقة ولكن اسمع ذلك، توم كان يعاني توترًا في العلاقات النسائية ويكاد يكون غير قادر جنسيًا وعليك أن تفهم البقية».

فقلت: «تريد أن تقول إنه يستخدم شهرته في إثارة الفتيات اللاتي يسعين إلى الشهرة ولن تجد الفتاة التي ستعترف بأنه غير قادر جنسيًا لرغبتها في صحبة الشهرة والجاه والمال».

فقال «جيمس»: «بالضبط، أصبتَ يا كمال».

«ومن هنا يا صديقي، نتأكد أن كل تلك الفتيات ليست أكثر من ستار لإخفاء تلك الحقيقة المخزية عن رجل يعرفه الإعلام بأنه

أيقونة ذكورية متحركة على قدمين، باللسخف! وكطبيب نفسي أؤكّد لك أن هذه الشخصيات إما أن تكون قاسية جدًّا وإما حنونًا جدًّا لدرجة الهوس، وفي حالة توم أعتقد أنها الثانية».. قلت مفكرًا فقال «جيمس»: «هل توصلت لشيء مع كريستين؟!». فقلت متباهيًا: «لقد أغلقت القضية يا صديقي، الأمر انتهى، قابلني في المستشفى الذي توجد به ديانا لننهي هذا الأمر»، فأغلق الخط دون كلمة وداع فابتسمتُ في نفسي.

***

بدت «ديانا» في حالة جيدة، على الرغم من شحوب وجهها، وقد أكد لي الطبيب المختص أنها في خير حال ويمكن استجوابها. دلفت الحجرة في صحبة «جيمس» الذي بدا هادئًا؛ حيث أخبرني أن علينا أن ننهي ذلك الأمر لنلحق بمباراة البيسبول الخاصة بابنه الأصغر، وفي الحقيقة إني أيضًا أتمنى لو أن يحضرها، فليس معنى أني لا أملك حياة أن يفقد مَن حولي حياتهم، تطلعَتْ إلينا «ديانا» والأسى بادٍ على وجهها وقد اتفقنا أنا و«جيمس» على خطة معينة في الاستجواب على الرغم من أنه لا يدرك ما أنا مُقدِم عليه.

«حمدًا لله على سلامتك يا ديانا، أتمنى أن تكوني أفضل الآن، لقد شعرنا جميعًا بالقلق».. قال «جيمس» مواسيًا بنبرة بدت صادقة.

شكرتْه بإيماءةٍ من رأسها وبدا عليها الامتنان، بينما أشرتُ لها برأسي كتحية وقد امتلأت عيناي بطيف حان، كنت بارعًا في رسم تلك التعابير على وجهي، لقد كان عملي يتطلب ذلك دائمًا،

سمعت «جيمس» يقول: «لقد حاولنا الاتصال بأي قريب لك حينما ساءت حالتك وللأسف لم نجد سوى جدتك ؟!».

بدا عليها الاستياء وشيء من الغضب ثم قالت: «جدتي، لماذا اتصلتم بجدتي؟! ستقلق عليَّ كثيراً، كما أنها مريضة». فقال «جيمس» مهدئًا: «لا تقلقي، لم نذكر شيئًا لها حينما عرفنا بحالتها!».

فقالت منزعجة بشكل واضح: «هل ذهبتم إليها؟! ها.. وبماذا أخبرتكم؟! أخبرتكم طبعًا أني غبت عنها لفترة طويلة دون أن أحادثها! أليس كذلك؟! لقد نويت زيارتها أكثر من مرة، لكني مشغولة كثيراً في عملي كما تعرفون!».

فتدخلتُ سريعًا لأنها اللحظة المناسبة لكل شيء: «نعم، لقد قالت لنا كل شيء يا ديانا، لم تنكر شيئًا ولم تهفُ عليها هفوة، على الرغم من طعنها في السن!». فحدجتني بنظرة نارية لكنها بدت متلعثمة وموشكة على الصراخ فقلتُ متماديًا: «لقد أخبرتنا بشأن والدك، بشأن تلك السيارة التي انجرفت ليموت، لم يكُن يستحق والدك الموت؛ لأنه لم يقتل والدتك كما تعتقدين».

«بلى.. لقد كان يستحق الموت». صرخت في وجهي صرخة مدوية وتحولت ملامحها النضرة لتجاويف محفورة في وجهها كما لو أنها ذبلت وجفت فجأة، فأخذتُ نفسًا طويلاً ونظرت إليها نظرة طويلة ثم قلت بهدوء بعد أن جلست بجوارها: «ديانا.. أنا لستُ هنا لأوجِّه إليك أصابع الاتهام، بل على العكس أنا هنا لمساعدتك، للأسف لقد كتب توم بعض ذكرياته، للأسف توم لم يحبك يا ديانا، كان يعتبرك الجني الذي خرج من المصباح لتحقيق أحلامه ونزواته

المتعددة، ونحن نعرف أيضًا أنه لم يكُن لتوم نزوات كما تعرفين أنتِ هذا الأمر أيضًا.. بل تعرفينه أكثر منا.

لقد كتب توم اسم كريستين على زجاج النافذة أملاً في أن نعثر عليها كي ننقذها منكِ؛ لأنها المفتاح الوحيد لحل القضية وليس من أجل أن يخبرنا بقاتله؛ فكريستين مجرد ضحية استخدمها شيطانك لتحقيق غايته، ولكن ما يجعلني أتساءل بحق: لِمَ أقدمت على قتل توم على الرغم من أنه لم يبخل عليكِ بشيء؟! هل هو انتقام ناتج عن طمع وجشع، أم عن حب لم يتحقق في النهاية، أم ربما لأنك تخشين أن تأخذ فتاة حمقاء مكانك في حياة الرجل الذي صنعته؟! ربما كان توم رجلاً لا يستحق العيش ولكنه أيضًا لا يستحق القتل».

فصاحت في وجهي مندفعةً وقالت: «بل كان يستحق القتل».

تطلعتُ إلى «جيمس» بنظرة ذات معنى فقال «جيمس» محاولاً تهدئتها: «ديانا، إن دكتور كمال لا يسعى إلى إثبات شيء عليكِ، ولكن كل ما في الأمر أنه يريد معرفة الحقيقة لمساعدتك ليس أكثر».

نقلَتْ بصرها بيني وبين «جيمس» لوهلة فاقتربت منها بهدوء وعلى وجهي ابتسامة وربتُّ عليها فأحسستُ برجفة تسري في جسدها: «ديانا، أنا أعرف جيدًا أنكِ مصابة بالاضطراب الوجداني ثنائي القطب، أعرف ذلك منذ اللحظة الأولى التي رأيتكِ فيها، لكنك وبكل أسف في مرحلة متقدمة، إنه مرض نادر، لكنه معروف أيضًا، وهذا هو المرض الذي ورثته عن والدتك التي انتحرت في النهاية، مرض وراثي لعين يودي بحياة صاحبه في النهاية، للأسف، وفي حالتك أنتِ، شخصية خارقة الذكاء، تتمتع بالعديد من

العلاقات، سيدة من سيدات المجتمع، تعمل لدى شخص مشكوك في رجولته ومشكوك في سُمعته لكنه على جانب آخر يمثل نصف حياتك وتعبك، ولكن مع هذا المرض قد يتحوّل الشخص إلى مجرم دون شعور، فإما أن يَقتل وإما أن يُقتل».

بكت «ديانا» لفترة غير قصيرة بين ذراعيَّ وأحسست بمدى الألم القديم الذي تشعر به، طفلة تتعرَّض لذلك الموقف البشع، أن ترى أمها معلقة في السقف أمام عينيها وعلى وجهها نظرة بشعة تحدق بها من عالم الموتى، ترتسم خيالاتها وتنبئها بأن والدها هو السبب فتقرر التخلُّص منه بشكل لا يوجِّه إليها أصابع الاتهام، ثم تخرج من البلدة بلا عودة، ولكن هناك الجدة التي تعرف كل شيء، ولكن مَن مات قد مات، والجدات كتومات فيما يخص الحفيدات، حتى إن كُنَّ مجرمات، الحقيقة أن مرض الاضطراب الوجداني ثنائي القطب هو مرض تتناوب فيه موجة الاكتئاب الكبرى مع نوبة الابتهاج بشكل أقل، ويُعتقد أنه أكثر شيوعًا في النساء، وقد تم وصف الحالة لأول مرة من قِبَل طبيب ألماني (إيمل كرايبيلن)، وكثيرًا ما يكون الفنانون والمبدعون والعلماء أكثر عرضة للإصابة به.

عمومًا، حينما هدأت «ديانا» شرعَتْ في إطلاعنا على القصة كاملة، لكن، في الحقيقة، دموعها لم تتوقف وهي تقص علينا: «لقد عرفت توم منذ خمس سنوات تقريبًا، نشأتْ بيننا علاقة واكتشفت أنه غير قادر جنسيًّا وقد شعر بالألم لأنه لم يستطِع أن يبادلني الغرام، كانت تلك هي مشكلة حياته، ولأنه فنان مشهور فقد عمد إلى إخفاء الأمر بدلاً من أن يعالجه خوفًا من أن يفتضح

وينتهي أمره تمامًا، نشأت بيننا صداقة واستطعتُ أن أعمل لديه حتى صرت وكيلة أعماله، وفي الحقيقة أن حبي لتوم ازداد مع كل يوم حتى صرت بالفعل أحبه، لكنه في الحقيقة لم يعبأ لذلك على الرغم من أني أخبرته مرارًا بالأمر وأكدت له كثيرًا أن أمر عجزه لا يهمني وأني أرغب حقًّا في الزواج منه، لكنه رفض بشدة وأضحى يعربد بشكل غير طبيعي في الفترة الأخيرة، أحسست بالإهانة...»، فقلت مقاطعًا: «بل بالخوف من أن يفعل بك توم كما فعل أبوك بأمك كما تعتقدين».

هزت رأسها بالإيجاب واسترسلت: «كنت أنا من يتلقَّى خطابات المعجبات، وفي الحقيقة هناك فتاة اسمها كريستين، كانت تستميت يوميًّا في إرسال خطابات له، مؤكدةً أنه واقع في غرامها ويرسل لها الخطابات، في البداية لم يهمني الأمر، واعتبرت أنها معجبة من ضمن معجبات مجنونات كثيرات يعج بهن هذا الوسط، لكن الأمر تمادى فقررتُ معرفة كل شيء حولها خوفًا على توم في البداية قبل أي شيء، ولكن مع اكتشاف حقيقتها ظهرت أمامي الخطة واضحة».

قال «جيمس»: «في استخدامها في تنفيذ جريمتك».

فقلتُ: «وبالطبع لن يشك أحدٌ بك؛ لأنك دخلتِ وخرجت دون أن يلاحظك الحارس، وبما أنك أكثر من يعرف المنزل جيدًا، فحسب الملف الذي قرأته أنتِ من اشتريتِ هذا المنزل لتوم».

أومأت برأسها بالإيجاب، ثم قالت: «وبالفعل، قمتُ أنا بمراسلتها باعتباري توم واستجابت سريعًا، حتى استطعت أن

أقدمها لتوم على أنها معجبة، نمَت بينهما علاقة، وبصراحة توم في الفترة الأخيرة تعلق بها تعلقًا شديدًا، وهذا ما جعلني أستشيط غضبًا ودفعني إلى أن أسرع في تنفيذ خطتي، لا أستطيع أن أرى فتاة بلهاء تأخذ مكاني بهذه البساطة! جلبت بعض ملابسها الداخلية التي ارتدتها وهي مخمورة داخل منزل توم؛ فمن عادته أن يحتفظ بكمية كبيرة من نوعية تلك الملابس، تسللتُ إلى المنزل وطعنت توم في صدره وتركته وذهبت سريعًا؛ لأني كنت أدرك أن تلك الضربة حتمًا ستودي بحياته.. وبصدق، حينما رأيته يترنح هكذا لم أستطع أن أجهز عليه تمامًا كما خططت فهربت».

«والكأس؟!».. تساءل «جيمس».

«هذا أمر سهل؛ فإن كريستين موجودة معظم الوقت في الأيام الأخيرة بمنزل توم».. قالت «ديانا» وشرعت في البكاء.

خرجنا من الغرفة نتبادل الحديث؛ حيث تم تسجيل كل شيء، فتساءل «جيمس» بهدوء قائلاً ونحن في طريقنا إلى ملعب البيسبول: «وماذا عن كريستين؟!».

ابتسمتُ وقلتُ: «إن قضيتك مليئة بالمرضى والمجانين، كريستين مصابة بهوس العشق ليس أكثر، مرض اسمه الهوس الشبقي، يتصوَّر فيه المريض أنه واقع في تجربة حب سرية وغالبًا ما تكون تلك العلاقة مع أحد المشاهير، يُعد العَرَض الأصلي المميِّز لهذا الاضطراب هو أن المصاب لديه اعتقاد غير قابل للشك أن هناك شخصًا آخر واقعًا في حبِّه بصورة سرية، وفي بعض الحالات قد يتصور المريض أن هناك أكثر من معجب في الوقت ذاته، وهذا ما

تصورته كريستين، الرسائل السرية والكروت الموقعة لأجلها فقط، وهذا ما استغلته ديانا، لا تنسَ أيضًا أن ماضي كريستين معقَّد، لكنها مريضة لا تهدِّد حتى فراشة، إنها مسالمة ذات حظ سيئ، والآن أرجوك لقد تعبت وجاء الوقت للاستمتاع بتلك الإجازة اللعينة».

تطلعتُ إلى «جيمس» في هذه اللحظة، لقد كان فاردًا ذراعيه خلف عجلة القيادة، مبتهجًا للغاية بعد موجة الاكتئاب الغريبة التي أصابته، مبتهجًا بشكل غير مقبول، يتملَّك منه الإحساس بالحرية، «جيمس».. لا.. أرجوك.. ليس أنت...

اللعبة الأخيرة

لم أخرج منذ مدة طويلة جدًّا، يبدو أن الأمر كذلك، ذلك واضح من لحيتي المشعثة ورائحة الغرفة الكريهة، كما أن عينيَّ لا تستطيعان مواجهة الضوء الساطع، يكفيني ذلك الوميض للقراءة، لمعرفة الأسرار، لكن المشكلة تكمن في ذلك الطعام الذي كلما فتحت الباب وجدته، يالها من عناية، ماذا يمكن أن أطلب من العالم أكثر مما أنا فيه من نعيم؟! طعام جاهز، إجازة طويلة، صمت قد تقطعه أصوات كثيرة، لكنه سرعان ما يعود ويستحوذ على كل شيء.. والأهم من كل شيء: تلك الكراسة، كراسة كمال الشريف، خير صديق في وحشتي تلك، الحمد لله أن زوجتي والأولاد في إجازة طويلة أيضًا؛ فالصيف مرهق وهم أشد إرهاقًا لأعصابي، فليذهبوا حيث شاؤوا، ليتركوني وحيدًا هنا.. وحيدًا تمامًا.

هوس العشق

«اجلسي، أرجو أن ترتاحي قليلاً ولا تفكّري في شيء الآن.. كوب الليمون مع النعناع سيكون مهدئًا مناسبًا لكِ.. ثوانٍ وسأعود»، تركتُها وحيدة مرتبكة، تبدو في أواخر العشرينات، عيناها زائغتان، هناك شيء يُخيفها، هناك ندبة حديثة بجوار عينها اليسرى، نتيجة ضربة قوية، لكمة، لا.. لا.. ليست لكمة عشوائية أو اصطدامًا بجدار أو عمود مثلاً، إنها بالتأكيد لكمة شديدة القسوة جاءت مباغتة إن صح ظني، أنت تدرك جيدًا أنني في عام 1975 فتحت عيادةً للأمراض النفسية، لقد شعرتُ بالإرهاق الشديد من كثرة السفر، لكنني أيضًا لا أطيق الجلوس بلا عمل، بلا حالات مرضية نفسية تشغل تفكيري، بلا ظاهرة غامضة تؤجّج عقلي المزدحم بالكثير من الأمور والأفكار التي لو اطلع عليها الكون لارتبك.

ليست جميلة أيضًا، لكنها عادية، تلك الكلمة الدارجة التي نستخدمها حينما لا نستطيع وصف شيء ما، لكنني لا أقصد ذلك المعنى، بل أقصد أنها عادية حدَّ الريبة، تبدو لي أكثر مما يظن عقلي؛ لذلك كان عليَّ الخروج لأتابعها من ذلك الثقب الموجود في الحائط الفاصل بين غرفة الكشف والمطبخ، لا أحد يستطيع كشفه لأنه ببساطة يقع بين الكتب من الاتجاه المقابل؛ حيث

صممته بالشكل الذي أستطيع به ملاحظة كل ما يجري في الغرفة دون أن يكتشفه أو يلاحظني أحد، أرجوك لا تفهمني خطأ؛ فأنا رجل يعتبر النساء ندبة على وجه الكرة الأرضية، ندبة بشعة يستحيل التخلُّص منها وبطبيعة الحال أنا متشكك للغاية في كل شيء.

في الحقيقة، إنها ساكنة للغاية، تتلفَّت حولها من آنٍ لآخر بشكل منتظم وكأنها، دون أن تلاحظ، اكتسبت عادةً جديدة، كما تبدو لو أنها تخشى شيئًا خفيًا لا يراه سواها، دلفت الغرفة سريعًا ومعي عصير الليمون بالنعناع، لا أعرف كيف يشربه هؤلاء حقًّا! إنه بشع، تناولَتْه مني بأدب وبعينَي قطة خائفة مرتابة تخشى هجومًا مفاجئًا، مسحتُ نظارتي الطبية جيدًا وجلستُ في مواجهتها على كرسي مريح، بينما جلسَتْ هي على أريكة عريضة في مواجهتي وفي يدها عصير الليمون بالنعناع الذي لم يُمسّ حتى هذه اللحظة، انتظرت طويلاً وأنا أنظر لها نظرة محايدة، في الحقيقة لم أخمّن فيمَ تفكر، لكنها كانت شاردة بعيدًا، بعيدًا جدًّا للدرجة التي جعلتها تنسى وجودي من الأساس.

«أنا خائفة».. تلك كانت جملتها الأولى في الحقيقة - منذ جاءت مترددةً إلى بابي - التي قطعت الصمت كسكين في صدرٍ لم يتهيَّأ للضربة بعد.

«ممَّ تخافين؟!». قلت بهدوء ونبرة تشجيعية.

رفعَتِ الكوب بيد مرتعشة وشفتين مرتجفتين مفكرةً أو كأنها تتهرَّب من السؤال ثم رشفت منه قليلاً ثم قالت: «منه».

«ومن يكون هذا الذي تخشينه؟!».

«إنه يأتي ليلاً».. قالت وهي تنظر عبر النافذة المغلفة والمغطاة بالستائر القاتمة.

«ولِمَ تسمحين له بالدخول إن كنت تخشينه؟!». قلت بنبرة محايدة لا يشوبها شيء من العتاب أو التأنيب .

فتطلعت لي لوهلة، بدت كشخص أوشك أن يلقي بنفسه من فوق جرف ثم قالت: «لأني لا أستطيع منعه، إنه زوجي».

«ولماذا تخشين زوجك؟!».

«لأنه... لأنه...». لم تتكلم، أشاحت بوجهها بعيدًا، سقطت دموعها، الضعف يؤلمها والاعتراف يؤلمها أكثر، كما أن الخوف الساكن فيها احتلَّها بشكل كبير والخوف أن يكون قد احتلها تمامًا.

«تكلمي، لا تخافي يا لينا». نعم ألم أقُل لك؟! اسمها لينا عماد، تقطن بالعجوزة، تعمل مُدرِّسة رياضيات للمرحلة الإعدادية، في الحقيقة هذا كل ما أعرفه، فلست ضابط شرطة أو منجِّمًا، ناولتها منديلاً بهدوء ثم نهضت من مكاني كي أفضي لها مساحة تكفكف فيها دموعها وتستعيد رباطة جأشها، جلستُ خلف مكتبي أقلِّب في بعض الأوراق عبثًا، أرمقها بطرف عيني من وقت لآخر، طلبت مني كوبًا من الماء، نظرت على دورق المياه لكني وجدته فارغًا فأخذته وانطلقت صوب الثلاجة في المطبخ، لكني سمعت باب شقتي يُفتح ويُغلق سريعًا، تسمرت مكاني وأخذت نفسًا طويلاً شاعرًا بالحزن، لقد غادرت..

غادرت تمامًا.

***

مرَّت الأيام القليلة اللاحقة تباعًا وأنا منحسر بين القراءة ومتابعة بعض المرضى القليلين الذين زاروني خلال المدة السابقة؛ فقد كان اللجوء إلى الطبيب النفسي في تلك الحقبة يُعد معجزة في حد ذاته، أنت تدرك جيدًا أن الأمور في مصر تسير على شاكلة معينة ودقيقة وكأنها عُرْفٌ، فمن يصيبه مرض نفسي يعتبرونه ممسوسًا من الجان الضعفاء المساكين أو مجنونًا منتهيًا أمره، فذلك سيكون أهون كثيرًا، ودعك من نظرية أن العلم يتفوَّق على الخزعبلات؛ لأن الأخيرة تلك تحديدًا هي ما نسير على نهجها المتوارث المقدس في الأمم العربية، لن أطيل عليك الحديث؛ فقد لفت انتباهي خبرٌ في جريدة الأهرام، في صفحة الحوادث تحديدًا؛ حيث وجدت أن هناك جريمة سرقة وقعت في أحد محال المجوهرات الشهيرة، ذلك أمر عادي، لكن الغريب في الأمر أن السرقة تمت عن طريق سيدة ملثَّمة كانت ترتجف من شدة الخوف وهي تحمل سلاحًا في يدها مهددةً صاحب المحل بملء الحقيبة الكبيرة التي تحملها بالمجوهرات، وحينما حاول الجواهرجي مواجهتها في اللحظة التي أحس بتملك الخوف منها أطلقت عليه رصاصة، لكن الحمد لله لم تقتله، فقد شاء القدر أن تصيبه في كتفه، وهذا ما يعكس خوفها، وقد أدلى شهود العيان بشهادتهم؛ حيث رأوا سيارة من نوع «بيجو» تقف وتلقفها سريعًا ثم تختفي عن الأنظار.

أقرأُ الكثير من الأخبار كل يوم تقريبًا لعل شيئًا يحرك تفكيري، ولا أعرف تحديدًا لِمَ أثارتني تلك السرقة بالذات، عرفتُ أن المسؤول عن القضية هو صديقي الطيب بدر السيوفي، رئيس

مباحث العاصمة، إن كنت تتذكره، ذهبتُ إليه في القسم واستقبلني استقبالاً حافلاً ولعنني كعادته على سبيل مداعبتي، لا تنسَ أنه ضابط شرطة !، سألته عن حاله وعن أولاده، وبدا أن كل شيء يسير على ما يُرام، نظر في عينيِ وأنا أحتسي قهوتي السادة معه ثم قال بنبرته العميقة وتلوح على وجهه ابتسامة أعرفها جيدًا: «كمال.. أنت هنا من أجلِ العمل وليس من أجل رؤيتي، أليس كذلك؟!».

ابتسمت وقلت بلا كذب: «بل من أجل الاثنين».

فقهقه قائلاً: «لعنة الله عليك يا أخي، ملعون ذلك العمل الذي يبعدك عن كل من يحاول الاقتراب منك، أصحاب العقول في راحة».

فابتسمتُ قائلاً: «لا أعتقد أنهم في راحة».

فضحك وقال بنبرة جادة بعض الشيء: «ماذا تريد؟! أنت تعرف أني لن أتأخر عنك في أي خدمة تطلبها».

فكرتُ قليلاً وأنا أحسبُ كلماتي ثم قلت وأنا أضع فنجان القهوة على الصينية الموضوعة أمامي على منضدة صغيرة مواجهة لمكتبه: «أنا مهتم بجريمة سرقة الجواهرجي الشهير».

تطلع إليَّ قليلاً ثم قال: «أتعرف عنها أي تفاصيل؟!».

فقلت: «ليس أكثر مما ذُكر في الجريدة».

أومأ برأسه مستجيبًا ثم قال: «على العموم، إنها ليست أول سرقة تقع بهذه الطريقة، لكننا عتَّمنا على الموضوع إعلاميًّا، منعنا أي جريدة من النشر في هذا الموضوع، في الحقيقة يا صديقي، إن

الجرائد لا تكتب عن كل الجرائم التي تحدث، لكن الأكيد أنها لا تنشر ما نطلب نحن التعتيم عليه».

فقلت مستغربًا: «ولماذا طلبتم التعتيم على قضية كهذه؟! ولِمَ قمتم بكشف الستار عنها الآن؟! ما الذي دفعكم إلى تبديل الرأي؟!».

فقال مبتسمًا: «أنت كما أنت.. كمال الذي لن يتغيَّر، عمومًا أعطني دقيقة واحدة». نهض من مجلسه خلف المكتب ثم وقف خلف الباب ونادى على العسكري الواقف في الخارج وهمس له بشيءٍ ما لم أتبيَّنه ثم عاد إلى مجلسه وقال: «لقد وقعت الكثير من السرقات خلال الأشهر الستة الأخيرة في أماكن مختلفة على مستوى الجمهورية، القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والقليوبية وغيرها من الأماكن، وكلها تتم بطرق غريبة نوعًا ما، جميعها تمت تحت تهديد السلاح، سرقات بالإكراه...».

قاطعنا صوتُ قرع الباب فأمره «السيوفي» بالدخول، دلف ضابط صغير السن وفي يده ملف، حيَّا «السيوفي» وأعطاه الملف ثم سرعان ما صرفه الأخير بعد أن شكر له طيب صنعه، فتح الملف بهدوء ثم قال: «كما هو موضَّح أمامي وكما أخبرتك، الجناة هنا امرأة ورجل دائمًا ما يجلس خلف مقود سيارة، لم يرَهُ أحدٌ أبدًا أو يتعرَّف إليه، كما أن السيارة تتبدَّل في كل عملية سرقة ولم يستطِع أحدٌ أن يدلنا على أيِّ رقمٍ من أرقام تلك السيارات؛ لأنه في كل مرة يدلي أحدهم برقم نصل إلى طريق مسدود، والمرة الوحيدة التي استطعنا أن نستدلَّ على إحداها وجدناها محطَّمة تمامًا بجانب

إحدى البنايات القديمة بالمهندسين، غريب! أليس كذلك؟!».

نظرت له نظرةً محايدةً وأنا أفكِّر فاسترسل قائلاً: «لكن الغريب حقًّا أن كل الذين تعرضوا للسرقة أجزموا بأن المرأة التي تسرقهم تكاد يقتلعها الخوف، لكنها لا تتوانى عن إطلاق النار إن حاول أحدهم منعها من إتمام السرقة. والغريب أيضًا أن الرصاص الذي أطلقته مرتين كان تحت تأثير الضغط كما نعتقد حتى الآن، وحسب المعطيات التي نحن بصددها، مرة أثبت الطب الشرعي أنها خرجت بشكل مباشر، تلك التي قرأت عنها في الصحف، أما المرة الثانية فقد أصابت الرصاصة المجني عليه من الجانب، أي أن الرصاصة أطلقها شخصٌ آخر من مسافة ليست بعيدة أيضًا بالمناسبة، بالطبع أنت تفهم أن شريكها، أيًّا ما كان جنسه، هو مَن قام بإطلاق النار؛ حيث أدلى المجني عليه بأقواله قائلاً إنه كان على وشك القبض عليها لولا تلك الرصاصة التي باغتته والحمد لله أنه لم يمُت».

فكرتُ قليلاً وتطلعتُ إليه لوهلة ثم تساءلتُ: «هل هناك أي شيء آخر ينبغي أن أعرفه؟! بالتأكيد هناك المزيد يا بدر».

قهقه «بدر» كعادته ثم قال: «بالتأكيد هناك المزيد؛ فقد أكَّد لنا أكثر من شاهد عيان أن الجانية لا تستخدم كلمات كثيرة حين اقتحام أي محل، لكنها تستخدم كلمات غريبة، كلمات لن يستخدمها سارق يحمل مسدسًا في يده كما تعوَّدنا وكما نرى عمومًا في الحياة، كلمات على شاكلة: أرجوك، ضع المجوهرات هنا.. أرجوك، لا تتحرك.. أرجوك، لا أريد أن أقتلك. حتى إن الجواهرجي الأخير تعاطف معها كثيرًا، فحينما دلفت عليه تطلَّع إليها مستغربًا،

فقد أقسم إنها كانت تبكي وهي تقول: أرجوك، نفِّذ ما أطلبه سريعًا؛ فلقد تعبتُ من كل هذا الهراء. وحينما حاول الاقتراب منها أصابه الطلق الناري، وقد أكدت السيدة الشاهدة على الحادث أنها هرعت تجاهه ونظرت له وهي تقول بنبرة معاتبة: ألم أقل لك إني تعبت؟! لماذا فعلت ذلك؟! أنت الذي دفعتني، أنا لم أفعل شيئًا. الغريب أنها بدت منهارة تمامًا يا صديقي».

أومأتُ برأسي ثم قلت: «لماذا لم تنشروا عن الأمر منذ بدايته؟!».

قال بنبرة جادة عميقة: «تلك كانت تعليمات الإدارة؛ فقد رأوا أن يعطوا للجناة مساحةً من الأمان كي يطمئنُّوا أن الشرطة لا تعرف شيئًا عن الموضوع فتتلاعب برأسهم الأفكار ويتملَّك منهم الجشع حال كلِّ من يشبههم فيُقدموا على سرقات أخرى؛ حيث قمنا بنشر قوات أمن قريبة من كل الأماكن المحتمل السطو عليها، ولكن كما تعلم نحن لا نستطيع تأمين كل شيء، كما أن الإدارة رأت أن النشر سيعمل على نشر الخوف بين المواطنين؛ فنحن لسنا أمريكا التي لديها عصابات مسلحة منتشرة في كل مكان، نحن أناس طيبون مسالمون أبعد ما يكون عن المشكلات يا كمال، أليس كذلك؟!».

ضحكتُ رغمًا عني ثم قلت: «بالطبع، ولكن ما الذي غيَّر رأيكم الآن؟!».

فقال: «لأن الموضوع أصبح ماسخًا، وقد عرفه الكثيرون، وقد انتشر الأمر في البلاد التي وقعت فيها السرقات وكثرت الإشاعات حول الأمر، فقررت الإدارة النشر حتى يتسنَّى للجميع معرفة الأمر وكشف الستار عن حقيقة الإشاعات المنتشرة، ربما وجدنا بينهم مَن

يساعدنا على الاستدلال عليهم». رمقني بنظرة مشاغبة شقية؛ حيث لمعت عيناه الضاحكتان ثم قال: «لديَّ مفاجأة لك».

فقلت مستغربًا: «مفاجأة؟!».

فتح درج مكتبه وأخرج صورة ثم ناولها إياي ثم قال: «هذه صورة جيدة للسارقة، كان هناك مصور فوتوغرافيا، ضمن هؤلاء المتسكعين الذين يسيرون في الشوارع ويصوِّرون كل شيء، لحسن الحظ أنه كان قريبًا من مكان الحادث واستطاع أن يلتقط تلك الصورة، ربما لا تظهر فيها ملامحها بشكل كامل نظرًا لأنها ملثمة، ولكن كما ترى يمكننا رؤية شريكها السائق من جانب وجهه».

تطلعتُ إلى الصورة متأملاً، تبدو الجانية في وضعية هرب وفي يدها حقيبة سوداء متوسطة الحجم بينما يبدو السائق... يبدو... غريب! نعم غريب جدًّا! يبدو أنه بان على ملامحي ما أثارني فقال «السيوفي» مستفسرًا: «لونك تغيرَّ، ماذا هناك؟!».

هززت رأسي ثم قلت وأنا أناوله الصورة: «لا شيء».

نظر إلى الصورة طويلاً ثم قال ضاحكًا بينما كنت أنا أسبح في عالم آخر: «أتعرف يا كمال أن ذلك الرجل يشبهك من ذلك الجانب الذي يظهر فيه وجهه؟!».

***

لم أنَمْ طوال الليل وأنا أفكِّر في كل الأمور المتعلقة بتلك القضية، لا أعرف لِمَ استحوذت عليَّ تلك القضية إلى هذه الدرجة، وبالطبع ربط الجانية بالحالة نفسها التي زارتني منذ أيام، أقصد لينا عماد،

التي هربت قبل أن تصرِّح بما يعتمل في نفسها، تُرى ما الذي دفعها إلى اللجوء إليّ؟! وما الحقيقة خلف تلك المرأة؟!

تسلَّمتُ جريدة الصباح كما هي العادة وبحثت داخل الأخبار لعلِّي أجد شيئًا، ولدهشتي وجدت الصورة الملتقطة للحادث الأخير، التي رأيتها بالأمس لدى «السيوفي»، منشورةً مع خبر في الجريدة يفيد باقتراب التوصُّل إلى الجناة، تأملتُ الصورة المنشورة قليلاً ورغمًا عني لم أنفك عن التفكير في لينا عماد، فاجأتني دقات الباب الصباحية.. إن موعد العيادة لن يبدأ قبل الواحدة ظهرًا، ارتديتُ الروب سريعًا واتجهتُ صوب الباب لأجد لينا عماد تقف في مواجهتي وفي حالة مزرية، تتأملني بعينين ذاهلتين دامعتين، ترتدي جيب أسود قصيرًا جدًّا وبلوزة سوداء مفتوحة عند الصدر، أنت تعرف أن تلك كانت الموضة المنتشرة في السبعينات قبل أن تباغتنا الموضة الغريبة التي تسلكها الفتيات في هذا العصر الغريب في كل شيء، تنحيتُ جانبًا دون سؤال فدلفت سريعًا مهرولة إلى داخل المنزل، تلفَّتت حولها سريعًا وقد بدا في عينيها خوف غريب ثم نظرت لي وبدت كأنها تستعيد وجودها، ودون أن أتفوَّه بكلمة وجدتها تتجه صوب الغرفة المخصصة للكشف على المرضى، تمشي بصعوبة بالغة وكأنها تتألم.

ألم أقُل لك؟! لقد حوَّلتُ نصف شقتي الواسعة إلى عيادة؛ حيث أخذت منها غرفتين كبيرتين، إحداهما خصصتها لاستقبال المرضى والأخرى للكشف عليهم، وفي الحقيقة إنني لم أستعِن بمساعد

لعدم حاجتي لمثل هذه النوعيات التي غالبًا ما تستغل المرضى، كما أنني لن أسمح بأن تكون هناك عين أخرى تراقبني طيلة الوقت.

مشيت خلفها والأفكار تحاصرني من كل اتجاه، جلست على الأريكة التي جلست عليها في اللقاء الوحيد الذي جمعنا بينما توقفت عند العتبة لأراقبها، دفنت وجهها بين كفيها ولكنها لم تبكِ، بل بدت كما لو أنها تتحدث أو تدمدم بشيءٍ ما لم أتبينه، وفي اللحظة التي قررتُ فيها الدخول إلى الغرفة سمعتُ طرقات الباب، فنقلتُ بصري متحيراً بينها وبين الطرقة الطويلة المؤدية إلى بهو الشقة، أصر الطارق على دق الباب مرة أخرى، اتجهتُ صوب الباب مدمدمًا بعد أن أيقنت أنها تحتاج إلى مزيد من الوقت قبل أن نتحدث، وهذا كل ما آمله.

فتحتُ الباب فوجدت عامل النظافة يقف في مواجهتي، فصرفته سريعًا قائلاً: لا يوجد لديَّ اليوم ما يستدعي. ودلفت سريعًا إلى الغرفة فوجدت لينا كما هي تدفن وجهها بين كفيها، لكنها أكثر هدوءًا على ما أعتقد، جلست في مواجهتها ثم قلت بهدوء: «كيف حالك اليوم يا لينا؟!».

تطلعت لي بعد وهلة لم تطُل ثم قالت: «لستُ بخير».

«هل هناك شيء تودين أن تخبريني به؟!».

رمقتني بنظرة غريبة بان فيها، لو صح ظني، شيء من الندم المختلط بالألم ولم ترد في النهاية على سؤالي، أخذتُ نفسًا طويلاً ثم قلت: «لقد مشيتِ آخر مرة دون أن نتحدث!».

فقالت بهدوء: «أنا آسفة، لكن كان ينبغي عليَّ ذلك».

اندهشتُ لوهلة من وقع إجابتها الغريبة ثم قلت: «ولِمَ كان عليكِ الانصراف؟!».

فنظرت لي نظرة خاوية تمامًا ثم انهارت باكية دون مقدمات ودفنت وجهها لمرة ثانية بين كفيها.. في الحقيقة، أنا أكره بكاء النساء، ولكن بالتأكيد لا يضايقني بكاء المرضى؛ لأنهم ببساطة مرضى، لكني أيضًا أبقي على مسافة محايدة ولا أدس مشاعري أبدًا في أي موضوع وأعني بكلمة الموضوع هنا «الحالة أو الشخص المريض»، لكني، وللغرابة، تعاطفتُ معها وشعرتُ بأن هناك ثقلاً غريبًا على صدرها تود لو أن تتخلص منه وعليَّ أن أقدِّم لها المساعدة.

نهضتُ من مجلسي وأحضرت منديلاً خاصًّا بي لخلوي من أي مناديل أخرى؛ حيث لم أعمد بعد لشراء المناديل التي كثيرًا ما أستخدمها خلال عملي حينما يبكي المرضى، ثم ناولته إياها فالتقطته بينما أجلس على الكرسي، نظرت لها متأملاً وهي تكفكف دموعها ثم قلت: «لينا.. أيًّا ما كان السبب الذي يغلفك بالصمت فهو نفس السبب للجوئك إلى طبيب مثلي؛ لذلك أنصحك بأن تتحدثي حتى تتخلصي من ذلك العبء على صدرك».

رمقتني بنظرة ممتنة ثم قالت مترددة: «أنت.. أنت رجل طيب ولا تستحق...»، ثم صمتت فجأة وعادت إلى البكاء.

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم قلت: «سأحضر لكِ بعض الليمون».

فأمسكتني من يدي بمجرد أن نهضت ثم قالت: «لا داعي، سأنصرف الآن».

شعرتُ بالحزن لأنها ستغادر أيضًا دون أن تتفوَّه بكلمة فقلت لها بنبرة هادئة للغاية: «أتمنى لو أنك تقولين أي شيء، ستشعرين بعدها براحة عظيمة، وتأكدي أني سأكون عونًا لكِ أيًّا ما كانت مشكلتك».

حدجتني بنظرة غريبة شابها شيء من الغضب والحزن معًا ثم قالت:

«لم تعُد مشكلتي بعد الآن».

ثم انصرفت من أمامي وقد شعرتُ بأنها أكثر خفة في مشيتها، متجهة صوب الباب، ولمَّا بلغته استدارت لي ثم قالت بنبرة عميقة: «السفلة كثيرون في هذا العالم يا دكتور كمال، أرجوك اعتنِ بنفسك؛ فأنت رجل طيب ولا تستحق...»، كادت على وشك قول شيء ما، لكنها قطعت كلماتها واكتفت بنظرة خاوية شابها شيء من غياب الوعي.

فتحت الباب في اللحظة التي أربكتني فيها كلماتها فوقفت على عتبة الباب وقلت وهي تغادر: «لينا، سأنتظرك.. لا تتأخري».

في تلك اللحظة، كان عامل النظافة يحمل أكياسًا كثيرة من القمامة نازلا بهدوء درجات السلم، استدارت «لينا» قبل أن تركب الأسانسير ثم قالت بعد تفكير لم يطل: «سآتيك ليلاً».

ابتسمتُ وأومأتُ لها برأسي دون كلمة، بينما توقَّف عامل النظافة يتابع المشهد بأكمله حتى غابت «لينا» داخل الأسانسير

واختفت تمامًا، فلمحت عامل النظافة يرمقني بنظرة بلهاء مبتسمًا فرمقته بنظرة غاضبة فهرول منصرفًا من أمامي، أغلقتُ الباب وأنا في حيرة من أمري من كل ما يحدث.

***

جلستُ طيلة الليلة أفكر في «لينا» وأربط كل الأحداث ببعضها البعض، انتظرتها طويلاً أنقل بصري من آنٍ لآخر تجاه باب الشقة وأتحفَّز بمجرد سماع خطوات على السلم أوَ حركة الأسانسير القديم الرتيبة، ويبدو أني غفوت على الأريكة.

صباح يوم الاثنين، وهو اليوم التالي، وقعت سرقة أخرى لمحل جواهرجي بحي الحسين، لكن هذه المرة كانت هناك دماء كثيرة؛ فقد أُردي الجواهرجي صاحب المحل قتيلاً إثر تلقيه طلقًا ناريًا في صدره، بينما أصيبت إحدى شهود العيان بطلق ناري في الجزء العلوي من صدرها وقد نُقلت إلى المستشفى في حالة خَطِرة، وقد اتجهت الشرطة صوب المكان بقيادة السيوفي للقيام بمهامها وقد عرفت من خلال جريدة الثلاثاء أن شهود العيان الذين حضروا الواقعة أجزموا جميعًا بأن الجاني سيدة ترتدي عباءة سوداء وملثمة، وهي المواصفات نفسها التي تتطابق مع السيدة المنشورة صورتها في الجريدة سابقًا.

جلستُ على كرسي وثير أحتسي قهوتي مفكرًا في كل ما يحدث، وفي الحقيقة كنت مستاءً؛ لأن «لينا» لم تأتِ ولم أسمع عنها أي أخبار حتى الآن، فجأة انتبهتُ لشيء مهم وهو أنني أعرف اسمها وعنوان سكنها، أو على الأقل المنطقة التي تقيم فيها،

اتصلتُ سريعًا بصديقي بدر السيوفي وزوَّدته بالمعلومات التي لم تكُن كافية بالتأكيد، لكنه وعدني بأنه سيبذل قصارى جهده، كما أنه أخبرني أنه يريد رؤيتي في اليوم نفسه لحاجته الملحة لاستشارتي، فوعدته بالزيارة خلال وقت راحتي من العيادة، ربما لم يأتِني أي مريض أو من يشكو علةً في جهازه النفسي خلال الأيام السابقة، لكن في الحقيقة ليس لديَّ أي رغبة في الخروج من المنزل الآن، والحقيقة أيضًا أني لا أعرف السبب، لكن حدسي ينبئني بأن هناك شيئًا على وشك الحدوث، شيء عليَّ انتظاره.

دق جرس الباب بينما كنت جالسًا في مكتبي أقرأ كتابًا دون تركيز، اتجهتُ سريعًا صوبه على أمل أن يكون ذلك الطارق «لينا»، لكنني وجدت رجلاً طويلاً، في نفس طويلة تقريبا، تميل بشرته إلى السمرة الرائقة، ذو ملامح شرقية أصيلة، ثلاثينيًّا، وسيمًا بعض الشيء، يرتدي بدلة سوداء وقميصًا أبيض ورابطة عنق زرقاء يقف في مواجهتي وعلى وجهه ابتسامة ثابتة، ظلت عيناي ثابتتين عليه فقال: «أنت دكتور كمال، أليس كذلك؟! هل يمكنني الدخول؟! لقد جئت إليك في أمر مهم، اسمي أحمد أبو المكارم، مهندس مدني، أقطن بالمهندسين». أومأت برأسي دون أن أتكلم؛ حيث كان عقلي شاردًا، ثم تنحيت جانبًا قليلاً لأسمح له بالمرور، وبالفعل دلف الشقة ووقف منتظرًا إشارتي له، تأمل الشقة بشيء من اللامبالاة ثم قدته حتى وصلنا إلى غرفة استقبال المرضى وجلسنا في مواجهة بعضنا، فقال مبتسمًا: «اسمي، كما أخبرتك، أحمد أبو المكارم، أعمل مهندسًا مدنيًّا، متزوج، لكن لم يرزقني الله بأبناء حتى الآن».

قلت وأنا ما زلت أفكّر في «لينا»: «أهلاً بك سيد أحمد، تُرى ما الموضوع؟!».

فقال كمن يرمي بحجر في بحيرة راكدة: «أنا زوج لينا عماد».

تطلعتُ إليه محاولا بجهد إخفاء آثار المفاجأة وانتبهتُ ثم قلت متلاعبًا: «مَن لينا عماد؟!»، فأنت تعرف يا صديقي أن أسرار المريض لا تخرج أبدًا للغرباء، والغرباء في حالتنا هم أي شخص عدا المريض نفسه.

ابتسم ابتسامة العارف ثم قال: «أنا أعرف يا دكتور أنها تأتي إليك هنا، فأنا في النهاية زوجها ولست غريبًا عنها».

فقلت بشيء من الفظاظة: «وما المطلوب مني؟!».

فقال بهدوء والابتسامة لم تفارق وجهه: «اهدأ يا دكتور، فما جئت هنا إلا لمناقشة حالة زوجتي لا أكثر؛ فأنا لا أملك غيرها في هذه الحياة، وأمرها يهمني أكثر من أي مخلوق آخر على هذه الأرض».

أومأتُ برأسي واستعدت رباطة جأشي ثم قلت: «فنجان قهوة؟!».

فأومأ برأسه مستجيبًا فنهضتُ من مكاني منسحبًا إلى المطبخ وأنا أفكر في الأمر برمته، اعتراني شعور بالضيق وتمنيت لو أنها بخير، لكن حدسي ينبئني أيضًا أنها ليست بخير، فما الذي أتى بزوجها إليّ؟! وكيف عرف أنها تأتي إليّ من الأساس؟! يبدو شخصًا عاديًا لكنني لا أشعر بالراحة تجاهه، على أي حال سأعرف كل شيء بعد

قليل، وضعت الفنجانين على صينية واتجهت صوبه فوجدته ما زال جالسًا في مكانه يدخن سيجارة بلون بني، سيجارة أجنبية على ما أعتقد، ابتسم ونهض من مكانه على سبيل إظهار الاحترام وتناول الصينية مني قائلاً: «يبدو أنك تعيش وحدك يا دكتور، ألا يوجد من يخدمك؟!»، فهززت رأسي بالنفي دون كلمة، فقال: «لذلك نتزوج، فالزواج أهم شيء في الحياة».

الآن سيبدأ النصح الذي لا جدوى منه، ألا يدرك هذا الأبله أن الزواج هو من قاد المجانين إلينا نحن الأطباء؟! سمعته يقول بهدوء وهو يتناول فنجان قهوته:

«إن لينا، منذ مدة طويلة، تشعر أنها ليست على ما يرام، حاولتُ الترويح عنها بشتى الطرق ولكنها للأسف سقطت في بئر من صمت غريب، لم تعُد تتكلم وتناقش وتتفجر بالحياة كالسابق ولم تعُد الحياة تهمها كما عهدتها، بل أصبحت مهملة لنفسها وحياتها وانزوت بعيدًا عن الناس تمامًا».

فقلتُ وأنا أرشف القهوة: «بالتأكيد هناك سبب لذلك كله».

فقال بنبرة عادية: «دكتور كمال، أنا رجل مشغول تمامًا، طبيعة عملي لا تعطيني مساحة كبيرة من الوقت، أسافر كثيرًا من أجل العمل وأتركها وحيدة بكل أسف، اصطحبتها أكثر من مرة خلال أسفاري الكثيرة، لكن للأسف أنت تعلم أنه لم يكُن لديَّ الوقت الكافي للبقاء معها، كما أننا لم نُرزق بأطفال كما أخبرتك، حاولنا كثيرًا في تلك المسألة لكننا لم نفلح، أنت أكثر الناس إدراكًا أن مسألة الأطفال تلك هي مسألة رزق لا يد لنا فيها؛ لذلك عمدت

إلى تشجعيها على العمل، وبالفعل وجدت لها عملاً مناسبًا، ولكن للأسف لم تكمل فيه وانتهى بها الأمر كما أخبرتك».

فقلت مفكرًا: «كيف تزوجتما؟!».

«لقد انتقلت لينا إلى العيش في العمارة التي أقطن بها مع عائلتها منذ خمس سنوات وأعجبت بها وقررت الزواج منها، زواج مصري تقليدي إن كنت تحب أن تطلق عليه وصفًا، لم تكُن هناك قصة حب، بل زواج اتفق فيه الطرفان بعد أن رأيا أنه زواج مناسب لكليهما، لا أكثر، ولكني بالفعل أحببتها بعد الزواج وأعتقد أنها بادلتني الشعور نفسه، لكن مع الوقت حدث ما حدث».

«ومنذ متى تزوجتما؟!».

«منذ سنتين تقريبًا».

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم قلت: «ومتى بدأت تلك الحالة؟!».

«منذ ما يقرب من عشرة أشهر، أي بعد الزواج بفترة ليست بالطويلة».

قلت مباشرةً ودون مراعاة لمشاعره: «هل تعتقد أنها ندمت على الزواج منك؟! أو لنقل أنها ندمت على فكرة الزواج نفسها؟! هناك الكثير من الفتيات اللاتي يتسرعن ويأخذن قرارًا سريعًا بشأن عملية الزواج ثم يندمن فيما بعد، والندم له معايير وأشكال مختلفة، هناك من يتمردن ببساطة فيطلبن الطلاق ببساطة، وهناك أيضًا من يعشن في محاولة للتأقلم، وهناك من يصبن بالتغيرٌ الغريب، كما

في حالة لينا مثلا! ربما كانت هناك علاقة عاطفية قديمة لا تعرف عنها شيئًا!».

وضح على ملامحه الضيق بعض الشيء، لكنه كان قادرًا على التحكم في مشاعره، اكتفى بابتسامة باهتة ورشف القهوة ثم قال بنبرة هادئة: «دكتور، أنا أعرف زوجتي جيدًا، وأقسم لك إنها لم تعرف شخصًا غيري في حياتها، لكني لست هنا من أجل هذا».

رفعت حاجبي منتظرًا أن يكمل كلامه، فسمعته يقول بهدوء: «إن زوجتي حالتها تسوء يومًا بعد الآخر، إنها تخرج وتعود وتكاد لا تتذكر إلى أين ذهبت وكم مضت في الخارج، كما أنها تصحو كل يوم على كوابيس مزعجة فتملأ الدنيا صراخًا، أنا لست من ضمن هؤلاء الذين يعتقدون في الأفكار والأعراف الخاطئة كمس الجان أو ما شابه من هذه الأمور؛ فأنا رجل مثقف ويدرك تمامًا أن زوجته تحتاج إلى طبيب، وطبيب مثلك قادر على علاجها، لكني جئت إلى هنا طلبًا لمساعدتك، كل ما أستطيع قوله إنها قبل أمس كانت مرتعدة ويعتريها حزن عميق.. أخبرتني متلعثمة وبعد تردد طويل، وإلحاح، أنها تشعر أن هناك مَن يلاحقها، لكنها لن تتوانى عن قتله، لم أظفر بشيء آخر أكثر من هذا الاعتراف الغريب الوجل كما ترى، إني منزعج جدًا منذ تلك الليلة، وقد ترددتُ كثيرًا قبل أن آتيك هنا، لكني أخشى أن يصيبها مكروه، وهذا ما دفعني إليك كي تساعدني، أنا واثق بأنك ستفعل ذلك».

فقلت بهدوء بعد تفكير: «لقد جاءت ووعدتني أنها ستأتي مرة أخرى، لكنها لم تفعل».

ابتسم وقال: «أعتقد أنها ربما تفعل، ومن جانبي سأحثُّها على ذلك، لقد أخذت من وقتك الكثير، لكنني على يقين أنك رجل طيب معطاء قبل أن تكون طبيبًا ناجحًا».

سلمت عليه وشكرت له طيب صنعه واهتمامه بزوجته، لكنه استدار قبل أن يغيبه الباب ثم قال وهو ينظر لي نظرة غريبة لم أفهمها: «أتدري يا دكتور؟! وحدهم الأغبياء الذين يظنون أنهم وحدهم الأذكياء». ثم ابتسم بشكل غريب دون أن يلتفت لي مرة أخرى وغادر تمامًا.

أغلقتُ الباب مفكرًا وشاعرًا بالريبة وفكرت بكلمات «لينا» عن زوجها، لقد بدا عليها الهلع منه، لقد قالت إنه يأتي ليلاً ولا تستطيع إبعاده عنها، لم أفهم من كلماتها الكثير ولكن هذا الرجل على الرغم من نيته الطيبة فإنه لا يريحني على الإطلاق..

لا يريحني أبدًا..

***

في تلك الليلة، بينما كانت الساعة تدق الثانية عشرة ليلاً، كانت «لينا» تقف في مواجهتي ترمقني بعينين جامدتين غائمتين، تكادان تكونان ميتتين، لم أكُن منزعجًا من المسدس الموجه تجاهي بيدٍ مرتجفة، لم تتفوه بكلمة تهديد واحدة، لكني كنت واثقًا من أن ظلالنا كانت تتخايل على ستائر النافذة المفتوحة، أحسستُ بالمشهد الساخن كاملاً يتسربل ثائرًا داخل دمائي وأحسستُ أيضًا بالكلمات التي تود أن تصرخ بها في وجهي ووجه كل إنسان على هذه الأرض.. في الحقيقة، إنه حينما فتحتُ الباب وجدت الملثمة

كما تم تصويرها وكما ظهرت في الجرائد تقف في مواجهتي وتوجّه مسدسًا في وجهي، ظلت تلكزني في ظهري بالمسدس حتى صرنا على هذا الوضع الذي نحن عليه الآن، مسدس في حالة انتظار تحمله سيدة متهمة بجرائم متعددة، لديها خلل نفسي معروف، تتحكّم فيها شخصية سادية من خلف الستار، لكن أين ذلك العبقري الشرير؟ وإلى متى سيتأخر؟! أخيراً.. إني أسمع ضوضاءهم اللعينة، أصواتهم الغجرية، الأوامر الكثيرة المتداخلة التي يصيح بها صاحب الصوت الجهوري، دائمًا متأخرون، دائمًا متأخرون..

«لينا، أرجوكِ.. أنتِ تعرفين أنني لا أنشد شيئًا سوى مساعدتك! لماذا تفعلين ذلك؟!».

«لا تتكلم أرجوك».. صاحت في وجهي بنبرة مهزوزة والمسدس يرتجف في يدها.

«لينا، اسمعيني.. لم يبقَ أمامنا سوى ثوان معدودة قبل أن تقتحم قوات الشرطة منزلي، يمكنني أن أساعدك».. قلت بنبرةٍ مُطَمْئِنَةٍ وبدا في عينيها التردد وهي تنقل بصرها بيني وبين الطرقة.

صرخَتْ في النهاية في وجهي وهي تسدِّد المسدس تجاهي وأكاد أرى إصبعها تتراقص مرتجفة على الزناد: «أرجوك لا تتكلم، لقد سئمت ترهاتك وترهات هذا العالم، يجب أن تموت يا دكتور كمال، لا حيلة لديَّ، يجب أن تموت كي أستريح».

أنهت كلماتها في اللحظة التي اقتحمت فيها قوات الشرطة المنزل

وفي مقدمتهم «السيوفي»، الذي دلف الغرفة شاهرًا مسدسه وصائحًا بحزم: «ألقي بمسدسك بعيدًا يا لينا، لم يعد هناك مفر؛ فالقوات تحاصر المنطقة بأكملها، ألقي بمسدسك واستسلمي الآن».

شهقت شهقة مفجعة وشرعت دموعها تتساقط ونظراتها ثابتة عليَّ، نظرات تحمل الألم والخزي ومشوبة بالعصيان والخوف، أحسست أنها لم تسمع «السيوفي» من الأساس، غامت داخل نفسها وغمغمت بشيء لم أتفهمه لكني موقن أنه من نوعية: «لا حيلة لديَّ، عليَّ أن أنفِّذ ما جئت من أجله.. وهو، ببساطة، قتل كمال الشريف».

وانطلقت الرصاصة..

***

جلستُ في مواجهة «السيوفي» مطأطأ الرأس، أحسستُ بنظراته مسلَّطة عليَّ كأضواء كاشفة على ملعب كبير خالٍ، كنت أستطيع أن أسمع ما يدور في خلده والتساؤلات الكثيرة التي تناوشه وتكاد تقتلعه، مفكرًا بحذر شديد في أول جملة سيلقيها عليَّ منذ الأحداث الأخيرة.

لقد وجدوا في شقتي مجموعة مجوهرات متناثرة في أكثر من موضع، بالطبع إنها تنتمي للمجوهرات المسروقة من أماكن مختلفة، وخلال اليومين التاليين، وحسب شهادة الشهود، تأكَّد أن «لينا» تتردد على شقتي، كما أكد عامل النظافة أنه رآنا في وضع حميم أمام باب شقتي، لا عجب في ذلك أيضًا! كما أن الصورة

المنشورة في الجرائد للسائق تتطابق بنسبة كبيرة معي! شريك المتهمة في عمليات السرقة، كل ذلك لا يهمني، ولكن ما يهمني حقًا أن تستفيق «لينا» من غيبوبتها؛ فهي لا تستحق الجحيم الذي تعيش فيه.

لقد أطلق «السيوفي» رصاصة عليها قبل أن تجهز عليَّ وقبل لحظة من ضغطها على الزناد، أصابتها الرصاصة في كتفها من الأعلى، كان مشهدًا مؤثرًا وأنا أهرول تجاهها وأرفعها لي قبل أن تبتسم تلك الابتسامة الباهتة والبائسة وتغلق عينيها، تغلقهما تمامًا..

«كيف وقعت في تلك المشكلة يا كمال؟! لا توجد لديَّ حيلة كما ترى، كل الدلائل ضدك».. قال «السيوفي» بنبرة حزينة.

«بدر.. أرجوك.. هل جننت؟! أتصدق ذلك الهراء؟!».. قلت معاتبًا بابتسامة عصبية.

فرمقني بنظرة حائرة ثم قال: «أعرف جيدًا أنك بريء من كل ذلك، ولكن يا كمال أنا رجل شرطة وفي النهاية تتلخص مهمتي في تقديم الجاني إلى العدالة».

«لا تلعب معي لعبة القط والفأر يا بدر.. أرجوك.. ليس هذا وقت المزاح».

ابتسم «السيوفي» بعد وهلة طويلة متلاعبا بأعصابي، فما الضير من التلاعب معي لبعض الوقت، فالسيوفي صاحب مزاج غريب متأصل في المزاح المنحرف ولكنه قال في النهاية:

«ماذا ستفعل إن كانت كل الأدلة ضدك ؟!».

أخذت نفسًا عميقًا شاعرا بالألم، مطأطئًا رأسي ومفكرًا ثم حدجته بنظرة غامضة قائلاً بعد تفكير:

«سأعترف بكل شيء».

***

أدلى المهندس أحمد أبو المكارم بشهادته لبدر السيوفي قبل أن يقرر الأخير تحويل القضية إلى النيابة. في الحقيقة، إن الرجل كان بارعًا حقًّا ويستحق وسامًا، تقديرًا لذكائه، ذلك الذكاء الذي دفع العالم نحو الانهيار على أيدي مجانين، أخبرهم أحمد أبو المكارم ببساطة عن شكوكه في زوجته منذ فترة طويلة، لكنه لم يكُن ليتصور أن الأمر وصل إلى هذا الحد وأنها انساقت خلف طبيب نفسي يحتاج بنفسه إلى العلاج، أطلعهم أيضًا على حساب بنكي لا يعرف عنه شيئًا يخص زوجته؛ حيث أتاه خطاب من البنك، منذ يومين، موجَّهٌ إلى زوجته، وقد أوضح الخطاب أن السيدة لينا عماد عميلة لديهم منذ سنتين - وهذا التاريخ يتطابق مع بداية ارتكاب تلك الجرائم-، عميلة مهمة أيضًا؛ حيث يحوي حسابها مبلغًا كبيرًا.

لم يكتفِ أحمد أبو المكارم بذلك؛ حيث كان رجلاً كريمًا إلى أبعد الحدود؛ فقد أكَّد أيضًا أن زيارته لكمال الشريف كانت من باب شكه؛ حيث طالب «كمال» في تلك الزيارة بأن يبتعد عن زوجته تمامًا، وإلاَّ سيقوم بفضحه في الجرائد وتقديم شكوى ضده في نقابة الأطباء، وقصَّ على «السيوفي» تغيُّرها الغريب خلال الفترة السابقة التي أججت شكوكه فيها ودفعته إلى تركه عمله ليجد الوقت الكافي لمراقبتها حتى يتسنَّى له معرفة الحقيقة، ولكن للأسف كان

الأوان قد فات ولم يستطع أن ينقذ زوجته من براثن هذا الذئب، وقد حدث ما حدث.

في الحقيقة، إنه حكى ذلك الجزء الأخير وهو يبكي على الخيانة التي حاقت به، كما كان واثقا من أنني قمت بإغرائها بل والتحكم فيها؛ لأنها بطبعها شخص هش يسهل التحكُّم فيه، وما كانت مقدمة عليه - أقصد قتلي بالطبع - لم يكُن أكثر من رد فعل طبيعي لإحساسها بالذنب لما اقترفته نفسها الضعيفة في حقه وحق الأبرياء الذين تأذوا بسببها.

حسب التقرير المقدم عن أحمد أبو المكارم، اتضح أنه يعمل بالشراكة مع مقاول من الصعيد بجانب عمله في إحدى شركات الإنشاء الكبرى، بدأ حياته من الصفر، بعلاقاته وقدرته الرهيبة على الإقناع وخلال مدة وجيزة استطاع أن يؤسس شركة صغيرة ما زالت تبحث عن موضع لأقدامها في عالم الأعمال، وقد أكد الكثيرون ممن يعرفونه أنه رجل طيب ونزيه ويعشق عمله.

***

استفاقت «لينا» في ذلك الصباح، والحقيقة أن «بدر» كان أصيلا للغاية، معترفا بالعِشرة القديمة، حيث استطاع بسلطته أن يستنقذني من فتحي العتال والسيد قورة وغيرهما من المجرمين المقيمين لديه في الحجز داخل القسم، أعترف أنهم كانوا ظرفاء، ليسوا جهلة، ولكنهم ليسوا بشرًا من الأساس، كائنات تقتات على القتل والسرقة والاغتصاب.. لكمني «العتال» لكمةً قوية لن أنساها حينما أخبرته أن زوجته تخونه من الدلائل التي لاحظتها فيه، لكنه

وبعد قليل من التفكير بدا غائما في ذكرياته، تكور على نفسه في جانب الزنزانة وصمت تماما فبدا مهيبا، كديناصور يستريح من سفر طويل، جلس كطفل صغير يبكي في صمت حينما ساد الظلام الزنزانة التي نجلس فيها، كان يبكي لأنني كنت أقول الحقيقة، ولكن الحقيقة موجعة كما تعرف.

كل ما كان يشغل تفكيري هو «لينا» وكيفية الخروج من المأزق الذي وضعتني الظروف فيه، إن كنت تتعامل مع مجانين فعليك أن تتوقع أي شيء وكل شيء، هذا هو المبدأ الذي لا بُدَّ ألَّا تنساه أبدًا؛ فالمجانين ليسوا، كما تعتقد، زائغي البصر، يصرخون بلا أسباب واضحة، ويتصورون أنفسهم أشخاصًا آخرين ويطلبون طلبات غريبة ويتصورون أشياء لا تحدث.. لا، إن السينما العربية، سامحها الله، نقلت لنا تلك الصورة الهشة عن عالم كبير يستحق التأمُّل؛ فالمجانين، يا سيدي العزيز، يتمتعون بذكاء أنت بنفسك ستعجز عن وصفه، وإن أردت أن أكون دقيقًا، يتمتعون بذكاء ستعرفه يومًا، ستعرفه بلا شك..

«لينا» ليست مجنونة على الإطلاق، إنها ببساطة مسلوبة الإرادة، تحب مُعذبها حد النخاع ولديها استعداد لتنفيذ أي شيء من أجله، لقد جاء تقرير الطب الشرعي أخيرًا.. وبينما كنت أنظف ملابسي من التراب والبراغيث العالقة بها جرّاء استضافتهم الكريمة لي، أخبرني «السيوفي» برغبة «لينا» في رؤيتي، لم أتفاجأ، لكني كنت موقنًا أن هناك ما يستدعي تلك الرغبة، طلبتُ من «السيوفي» إرسال أي شخصٍ كان في صحبتي لتغيير ملابسي باسم الصداقة التي بيننا، وفي الحقيقة كان الرجل متعاونًا، أخذني مع قوة كبيرة على

مسؤوليته الشخصية إلى شقتي وقمت بالاستحمام وتغيير ملابسي قبل زيارة «لينا».

قبل هذا اللقاء الغريب، والحاسم أيضًا..

***

وقفنا أمام المستشفى الذي توجد به «لينا» وفوجئتُ بوجود زوجها أحمد أبو المكارم في انتظارنا. في الحقيقة، إن «لينا» طلبت أيضًا رؤيته، سلم على «السيوفي» مبتسمًا ثم حدجني بنظرة لم أفهمها، فقلت بنبرة مسموعة موجَّهًا كلماتي لـ«السيوفي»، بينما يقتادني عسكري:

«ألم تسأل نفسك لِمَ ترتدي لينا عباءة دائمًا؟! ولِمَ تترجَّى كلَّ من تقوم بسرقته أن ينفذ ما تطلب؟! ألم تسأل نفسك يا صديقي لِمَ كانت لينا تشعر بالشفقة تجاهي منذ الزيارة الأولى؟!».. نعم، ركِّز معي.. هذا ما حدث من نظراتها وطريقتها الحزينة في التعبير عن مشاعرها، إنها هشة وقعت في يد من لا يرحم. تردد «السيوفي» فاسترسلتُ منفعلاً: «ألم تسأل نفسك أيضًا كيف يستطيع شخص مفعم بمشاعر الذنب والحزن المصحوبة بالرقة أن ينفِّذ كل تلك الجرائم؟! يقتحم المحال ويهدد أصحابها بل ويقتلهم إن استدعى الأمر وهو على عكس ذلك تمامًا؟! قل لي: كيف يحدث أن يوجد ذلك التناقض في شخص واحد؟! وحسب ما أخبرتني به فإنها لم تعترف بأي شيء حتى هذه اللحظة، كما أنك تدرك تمامًا أنها لن تعترف وإن قتلتموها؛ لأن الأمر ببساطة خارجٌ عن سيطرتها منذ مدة طويلة، ويمكنها ببساطة تقديم روحها إلى ذلك المسيطر

اللعين الذي يقف هانئًا وواثقًا بأنه أتم كل شيء على أكمل وجه، بل إنه يكاد يسخر منا ومن غبائنا». وسددت نظرة قاسية تجاه أحمد أبو المكارم الذي تململ في مكانه ثم نظرت لـ«السيوفي» وأردفتُ: «سيوفي، أرجوك، إن الأمر أعقد من تحليلاتك العقيم تلك، فلا تتكلم كثيرًا.. أرجوك».

تطلع لي «السيوفي» بنظرة خاوية ثم نظر إلى زوجها الذي بدا ساكنًا ثم قال غاضبًا:

«أرجوك يا كمال، وقبل الزيارة، كُن مهذبًا ولو لمرة واحدة في حياتك، ألا ترى يا دكتور ؟! لقد خرجت عن الدرب تمامًا! لقد كنا نراقبك منذ فترة، خصوصًا بعد اهتمامك المبالَغ بقضية الملثمة، وكل ما كان ينقصنا أن نقدم لك على طبق من فضة كل ما تريده من أدلة، الصورة مثلاً التي صدمتك بمجرد رؤيتها، وذلك لظهور وجهك فيها، وذلك شيء بالتأكيد لم تتوقعه، كما أن زياراتها المتكررة لك وتطابق شكلها مع الملثمة جعلنا في حيرة، لقد حذرتك يا كمال، لكنك أصررت على المضي قدمًا، لقد خدعك ذكاؤك.. بصدق يا كمال، أستطيع أن أقول إن اللعبة أضحت مملَّة، وهذا ما دفعك إلى اللعب على نطاق أوسع، قادك هوسك بأن تكون أنت المتحكِّم كما كنت طيلة حياتك. لينا بالنسبة لك ليست أكثر من أداة، وفي حالتك لينا مجرد سلاح، لكن السلاح غالبًا ما ينقلب على صاحبه إن لم يحسن استخدامه، وهذا ما كادت لينا تفعله، كادت تقتلك لتستريح من عذاباتها التي وضعتها فيها، وليست مفاجأة أن نجد بعض المجوهرات في شقتك التي تتطابق مع مواصفات بعض المجوهرات المسروقة، لكن المفاجأة أن نجد المسدس الذي قتل

الجواهرجي في شقتك، داخل مكتبك الخاص!». ثم رمقني بنظرة غشّاها الاستياء والألم ثم قال بنبرة متحشرجة: «صدقني، معاملتي المهذبة معك الآن ليست نابعة إلا من صداقتنا القديمة، هذا واجبي تجاهك، لكن واجبي تجاه العدالة شيء آخر».

ابتسم أحمد أبو المكارم ساخرًا ومضى يتحدث مع «السيوفي»، بينما سرتُ خلفهما مفكرًا وشاعرًا بالغيظ مما يحدث، أنيّ لـ«السيوفيّ» ألاَّ يصدقني ويكون بمثل هذا الغباء؟! أنا صديقه الذي شاركته الكثير والكثير ينأى عني ويصدق كل تلك الترهات والحقائق الزائفة، كيف؟! كيف يحدث ذلك؟!

***

جلست «لينا» أولاً مع زوجها، وقد منحهما «السيوفي» خمس دقائق على انفراد، بينما وقفتُ في الرواق الطويل داخل المستشفى مفكرًا، راودتني الكثير من الأفكار، لكن فكرة واحدة فقط استحوذت عليَّ، استحوذت عليَّ تمامًا..

حينما دلفنا الغرفة، رأيت أحمد يقبِّل يد زوجته التي بدت في حالة إعياء شديد، وقد بدا على وجهها تعبير حالم وهي تنظر إليه، نهض قبل أن يودعها بقبلة على جبينها ثم مر بجواري وعلى وجهه ابتسامة مستفزة، ثم رمقني بنظرة مشحونة بالغضب قبل أن يخفيه الباب الذي أغلقه «السيوفي».

انتظِرْ.. بالطبع أنا وأنت نعلم أنه وراء كل ما يحدث، هذا الأمر لا يحتاج إلى ذكاء، لكني أروي لك كيف حدث كل شيء؛ فنحن لسنا أبطالاً في مهمةٍ للبحث عن القاتل، بل في مهمة نفسية نستلهم

منها الكثير والكثير، ندخل في أدق التفاصيل حتى نستطيع الخروج بتفصيلة قد تقودنا فيما بعد إلى ما هو أهم وأكبر، ولكن دعك من هذا الآن، ولنعُد إلى قضيتنا.

وقفتُ في مواجهة «لينا»، لم أكُن أدري ماذا أقول، لكن الفكرة ما زالت مسيطرةً عليَّ، تطلعت لي بنظرة حاولت جاهدة أن تبدو فيها غاضبة، لكنها للأسف فشلت وبان عليها الإشفاق، كما أنها واهنة للغاية وتكاد تشعر أنها على وشك لفظ أنفاسها الأخيرة، لكن هذا لم يحدث، أؤكد لك ذلك.

طلبت من «السيوفي» أن يتركنا وحدنا لمدة خمس دقائق، لكنه رفض، فصحتُ فيه: «أرجوك يا سيوفي، أكمل جميلك واتركني معها لمدة خمس دقائق، ألا ترى أن حياتي بأكملها على المحك؟!، ولا تنسى أن هذا هو طلبها من البداية».

تردد «السيوفي» وهو ينقل بصره بيني وبينها، ثم اقترب مني وسدد سبابته في وجهي محذرًا، دون أن يقول كلمة واحدة، لكن الرسالة كانت واضحة.. جلستُ بجوارها بمجرد أن انصرفا وأنا عالِم في نفسي أن حياتي كلها تتوقف على هذه الدقائق الخمسة، بصدق يا صديقي، كان الأمر مثيرًا أكثر مما تتخيَّل.

***

نفس طويل مفعم بالغضب ونشد الهدوء في آن واحد، لا شيء يستدعي أبدًا أن تكون غاضبًا؛ فالمسألة ربما تكون معقدة ولكن أحيانًا لفك التعقيد عليك أن تبتعد قليلاً ثم تصعد إلى أعلى أيضًا قليلاً كي تستطيع أن ترى العقدة بأكملها، أين بداياتها وأين تنتهي!

أما المتصف فلا مشكلة فيه، لا مشكلة على الإطلاق؛ لأنه لا يحتاج منا إلا إلى قليل من الصبر حتى يتسنى لك فكه بهدوء وحتى لا يزداد الأمر تعقيدًا.. في الحقيقة هذا ما فعلته.

لا تستغرب إن قلت لك إنه تمت تبرئة «لينا» من كل التهم الموجهة إليها لأنها ببساطة لم تعترف بأي شيء، كان اعترافها واضحًا بأنها كانت يائسة خربة تتردد على طبيب نفسي، حاولت الانتحار وفشلت فقررت أن تقضي على أي شخص لتميت نفسها أو ما تبقى منها فيه، بينما وعلى جانب آخر أكَّدت أنها لا تعرف أي شيء عن مسألة السرقات أو جريمتي القتل، الأمر يزداد تعقيدًا لأن إفادة زوجها أيضًا أكَّدت كلامها؛ فالرجل ببساطة، وعلى الرغم من كل ما حدث، لم يوجِّه اتهامًا مباشرًا إلا لي، فأيًّا ما كان جُرم «لينا» فأنا المتسبب فيه، تبقى الجرائم الأخرى في طي الغموض إذن، ربما لم تفعل «لينا» كل ذلك وأن عقلي هو ما اختلق كل ذلك، أو ربما تفسير خاطئ أو توق إلى إبراز ذكائي هو ما دفعني إلى هذا الخطأ الذي كاد يقضي على مستقبلي، ولكن ماذا عن المسدس الذي وجدوه في مكتبي الخاص؟! ماذا عن المجوهرات التي وجدوها في شقتي؟! وماذا أيضًا عن زيارة أحمد أبو المكارم الغامضة التي زارني فيها قبل كل ما حدث؟!، في الحقيقة إن الرجل داهية وينفذ بالضبط ما خطط له.

وُجهت لي تهم كثيرة، وُجهت لي وحدي، وتحولت القضية إلى النيابة كما هو مخطط له ونشرت الصحف كل الحقائق والخيالات والإشاعات الممكنة عن القضية التي اهتم بها الرأي العام اهتمامًا شديدًا، فلك أن تتخيَّل الانهيار الكامل لسمعتي وحياتي ومستقبلي على يد رجل عادي كأحمد أبو المكارم، لقد كان محقًّا إذن حينما

قال: وحدهم الأغبياء الذين يظنون أنهم وحدهم الأذكياء. وأعتقد أن ذلك هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه، فلو كان الرجل غادر ببساطة بعد أن قصَّ لي حالة زوجته لكنت أبعدت عنه الشكوك بنسبة 60%، لكن نوعية أحمد أبو المكارم مغرورة، متسلطة، تعلن عن نفسها من وقت لآخر، تأبى الجلوس خلف الستار طويلا، يأبي أن يكون بطلا في الظل بينما يسرق منه الأضواء أحد الكومبارس المملين، شخصية تتوق لذلك التسليط على ذكائها، لكن السؤال يا تُرى: ماذا فعلت بعد كل ذلك؟! في الحقيقة يا صديقي أنا لم أفعل بعدُ؛ لأنني بالفعل كنت قد قمت بكل المطلوب قبل إلقاء القبض عليَّ وقبل أن يطلق «السيوفي» رصاصته على «لينا»..

أليس الأمر مشوقًا؟!

***

«سيوفي.. وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه ولا وقت لتضييع الوقت».. قلت ذلك لـ«السيوفي» الواقف أمامي يراقب بغباء ككل البشر الذين عرفتهم.

فقال بنبرة يائسة: «ولكن يا كمال أنت تعرِّض مهنتك وحياتك بأكملها للخطر».

فقلت بهدوء وأنا أعيد كل شيء إلى موضعه: «ألم ترَ المجوهرات المخبَّأة لي؟! ألا ترى هذا المسدس؟!». أمسكته بمنديل وأشهرته في وجهه: «لقد قام أبو المكارم بزيارتي ليس من أجل لينا ولا من أجل أي شيء في هذا العالم سوى أن يدس هذا المسدس لي بمجرد أن تتهيَّأ له الفرصة، ورجل مثله لا يحتاج إلا إلى ثوانٍ كي ينفذ مخططه، ولقد كان لديه كل الوقت وأنا أعد له القهوة، وماذا

عن زيارات لينا المتكررة لي لم تكُن إلا زيارات من أجل دس بعض المجوهرات لي هنا وهناك داخل الشقة، لكني أؤكد لك أنها مُكرَهة على كل ذلك، مرغمة بشكل لا تتخيله، ورغم ذلك لم تفعل أي شيء، كان ذلك واضحا حينما أخبرتني في المرة الأخيرة بأني رجل طيب ولا أستحق».

تململ «السيوفي» ونظر لي مستغربًا ثم قال: «ماذا تعني بقولك إنها مرغمة على فعل كل ذلك؟!».

«أعني أنها مريضة، مسلوبة الإرادة، ألا تعرف شيئًا عن متلازمة استوكهولم؟!».

تطلَّع لي ببلاهة وهز رأسه بالنفي، فقلت بنبرة أكاديمية وأنا أعيد المسدس إلى مكانه، نفس المكان الذي دسّه «أبو المكارم» فيه: «إنها متلازمة تصيب الفرد عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه أو من أساء إليه بأي شكل من الأشكال، أو يُظهر بعض علامات الولاء له، مثلاً: أن يتعاطف المخطوف مع الخاطف، وقد اشتهرت تلك المتلازمة عام 1973 وسُميت بهذا الاسم تيمنًا بمدينة استوكهولم بالسويد التي ظهرت فيها الحالة، حيث وقعت حادثة سرقة لبنك هناك، وخلال عملية السرقة احتجز المجرمون عددًا من موظفي البنك كرهائن لمدة ستة أيام، وخلال المفاوضات مع الشرطة والمسؤولين، ارتبط المجني عليهم عاطفيًا مع الجناة، رافضين مساعدة المسؤولين، بل الأعجب من كل ذلك أنهم قاموا بالدفاع عن الجناة بعد انتهاء الأزمة، تسمية هذه الحالة كانت من قِبَل نيلز بيجيرو، المختص بعلم الجرائم والأمراض النفسية؛ حيث كان مستشارًا نفسيًا للشرطة في وقت وقوع الحادث، واشتُهرت هذه التسمية عالميًا بعد هذا الحادث».

تطلع لي «السيوفي» مفكرًا ثم قال: «ولكن ما علاقة كل ذلك بلينا؟».

فقلت مستنكرًا بنبرة منفعلة: «سيوفي، أرجوك، ألم تفهم بعدُ؟! تلك المتلازمة تتطابق مع حالات كثيرة، ضحايا اغتصاب المحارم أو ذوي القربى، المنتمين للطوائف الدينية المتطرفة، الأطفال المعتدَى عليهم، وكذلك النساء المعتدى عليهن.. ولا ننسى سجناء المعتقلات وغيرهم من الأمثلة يا صديقي».

«ولكن لينا، حسب ما ذكرت لي، لا يوجد بها أي إيذاء!».

«سيوفي، أرجوك.. في أول زيارة لها كانت هناك كدمة تحيط عينيها، لينا شخص خاوٍ هش وضعيف، تشعر بالضجر، تُعامَل معاملة قهرية من زوج حاد الذكاء، يتطلع إلى المجد بأي ثمن، الإيذاء هنا نفسي أكثر منه جسدي، وهو أعنف وأشد أنواع الإيذاء، لقد نفذت جرائمها وهي تحت تهديد السلاح يا صديقي، ألم ترَ الصورة جيدًا؟! آه، أنتم تنظرون ولكن لا تلاحظون!». وأخرجت الجريدة من درج المكتب وأشهرت الصورة في وجهه: «هل ترى يا سيوفي؟ إن المسدس الموجه نحو باب المحل الذي تسرقه لينا في هذه الأثناء موجه إليها هي وليس لأي شخص آخر، وهذا ما يؤكد أنه يحمل سلاحه الخاص طيلة الوقت خلال تنفيذ عمليات السرقة، في اللحظة التي تنكشف فيها لينا سيكون هو أول من يطلق عليها الرصاص وينتهي كل شيء في الحال، السيارات التي يستخدمها، سهل عليه الحصول عليها، خصوصًا أنه يتاجر في السيارات بجانب عمله ولا يهمه ثمن سيارة مقارنة بالجواهر والأموال التي يحصل عليها في كل مرة، ناهيك عن أنها سيارات قديمة لا تساوي شيئًا،

لكنها تفي بالغرض، لقد أطلق النار وأردى الرجل ميتًا ليس من أجل لينا وإنما من أجل نفسه، لينا تنفذ كل شيء وهو يخطط ويتابع بل ويحضر التنفيذ بنفسه، لكن خطأه الوحيد هو مباهاته بنفسه؛ حيث اعتقد أنه يرتدي لثامًا هو الآخر على وجهه حين تنفيذ تلك العمليات، وقد ضجر ذلك الأمر فأعلن عن نفسه في يوم جاء متسكعٌ ليلتقط له صورة ببساطة.

لقد أرادت لينا أن تنبِّهني أكثر من مرة، وبصدق لقد فهمت شفرتها حينما أخبرتني على السلم بأن عليَّ أن أحترس، لقد كانت محقَّة تمامًا، أرادت أن تخبرني بالحقيقة، لكنها فشلت، خافت وأصابها الهلع وهربت من شقتي، لقد كانت في حرب قصوى مع ضميرها، كانت مهمتها أن تزورني مرة واحدة، مرة واحدة فقط كي تدس لي الجواهر في الشقة، لكنها لم تستطِع وأخبرتني أنها تخاف لأنه يأتي ليلًا، أنها لن تستطيع منعه؛ لأنه ببساطة زوجها، خوفها جثم عليها وهربت قبل أن تنفذ ما جاءت في الأساس لتنفيذه؛ لذلك اضطر أبو المكارم أن يأتي إلى عريني لينفذ ما فشلت لينا في تحقيقه، وفي الحقيقة إنه كان توَّاقًا لذلك اللقاء إن سألتني عن رأيي».

أخذ «السيوفي» نفسًا عميقًا ثم قال: «ولكن لماذا أنت بالتحديد؟! لِمَ يتكبَّد رجل كأحمد أبو المكارم تلك المشقة غير المضمونة على الإطلاق مع طبيب مثلك؟!».

ابتسمت ثم قلت: «ألا ترى يا صديقي الحقيقة بعدُ؟! إن أحمد أبو المكارم يتوق للعب مع عقل يضاهيه ذكاء، إنها آفة المجرمين الأذكياء، التطلُّع إلى اللعب في كل مرة على مستوى أعلى، إنه لم يستطِع أن يغادرني دون أن يعلن عن غروره وقدرته، وذلك هو

خطؤهم المعتاد، هؤلاء المقيدون بعقولهم التي تصور لهم أنهم يستطيعون الإجهاز على العالم كله إن أرادوا، سقوطي بالنسبة له سيكون انتصارًا عظيمًا، ولا بأس بدسِّ زوجته في الموضوع لتحقيق مأربه، لا بأس بأي شيء صدقني».

وضع «السيوفي» يده على رأسه وبدا أنه يفكر ثم قال: «وماذا سنفعل الآن؟!».

ابتسمتُ ثم قلتُ: «سننفذ له ما يريد، سأسقط من أجل تلك اللعبة الخاصة». ثم نظرت له نظرة يعرفها جيدًا وأردفت: «وعليك أن تساعدني كي أسقط سقوطًا لا شك فيه».

***

بدت ابتسامتها مرتابة وهي تنظر لي قبل أن أغادر غرفتها بالمستشفى، خمس دقائق كانت كفيلة بأن أحقق ما رنوت إليه، لقد خاطرتُ بكل شيء من أجل تلك الدقائق الخمسة، في الحقيقة أنا أيضًا عليَّ تعريض «لينا» للخطر، لكنه خطر محسوب، وكُنْ على يقين يا صديقي أن «لينا» و«أبو المكارم» سينفذان عملية قريبًا، غريب! أليس كذلك؟! سيفتقدني أحمد أبو المكارم؛ لذلك فلا بأس من سرقة أخرى لتتم تبرئتي، ولكن كيف؟! فأنا محشور بين فكيَّ جرائم ستقودني حتمًا إلى حبل المشنقة، لكن أحمد أبو المكارم لن يقبل بذلك، فلا حلاوة في لعبة فقدت فيها منافسك الوحيد، منافسك الأقوى على الإطلاق، اللاعب الأدهى هو من يصور لمنافسه أنه لم يعُد لديه القدرة ولا السبيل لمنافسته حتى يطمئن، وفي تلك اللحظة عليه وبلا رحمة أن يجهز عليه، تلك هي أصول اللعبة.

***

نعم، لقد هيَّأ لي «السيوفي» الهرب من سراي النيابة، هذا ما اتفقنا عليه منذ البداية، الآن صار الطبيب المجرم حرًّا، طليقًا، يستطيع أن يهرب خارج البلاد إن أراد ولكن كيف وقد استولت الحكومة على أمواله، كما أنه أيضًا لن يستطيع المرور بشكل شرعي للهرب خارج البلاد كي يستنقذ نفسه من الكارثة التي حلت عليه؟! إذن لا بُدَّ من تنفيذ عملية أو اثنتين على الأكثر، ولا تنسَ أن الأطباء أمثالي مهووسون، لديهم قدرة على ارتكاب أي شيء من أجل المتعة فقط، من أجل أن يثبتوا للعالم أنه جاهل، غبي ومتخلف وضعيف.

***

إذن علينا انتظار وقوع جريمة أخرى، اختبأتُ في فيلا «السيوفي» يومين، اطمأننتُ بأن كل شيء قد سار حسب المطلوب، خرجت «لينا» والحمد لله من المستشفى، كتبت الجرائد وصالت وجالت في القضية، استخدمت كل خيالها المطلوب لتقص على العامة أسرار حياة دكتور كمال الشريف، المجرم الهارب، الآن عليَّ فقط الانتظار، انتظار تلك المكالمة، وفي الحقيقة أن انتظاري لم يطُل كثيرًا، وكنت أدرك منذ البداية أنه لن يطول.

***

وقفت قوات الشرطة متأهبة ومتحفزة على شكل نصف دائرة وهي تحيط بسيارة «أبو المكارم» الذي رفع يديه في الهواء مبتسمًا ومستسلمًا بينما كان مسدسه لا يزال في يده، ثم خرجت «لينا» وهي ملثمة ومرتعدة من محل الجواهرجي شاهرة يدها أيضًا بينما «السيوفي» يصيح في «أبو المكارم» ويأمره أن يلقي بمسدسه من يده وإلا أطلقوا عليه النار.

كانت المفاجأة يا صديقي هي خروجي من بين الحشد لأقف في مواجهة «أبو المكارم» مبتسمًا ومستمتعًا بانتصاري ناظرًا له تلك النظرة التي يلقيها المنتصر على عدوه المهزوم، تطلع لي وبدا أنه نسي العالم بأكمله، جحظت عيناه وأحسست بأن ألمًا عميقًا حاق به، وفي تلك اللحظة مشيت من أمامه بخُيَلاء واتجهت إلى «لينا» ثم أومأت لها برأسي فأزالت اللثام من على وجهها ونظرت لي مبتسمةً ابتسامةً باهتةً مفعمةً بالخوف والحزن، أمسكتُ بيدها وسرتُ من أمامه مخترقًا قوات الشرطة المنتشرة، بينما نظرة المهزوم والمصدوم على وجهه ما زالت مطبوعة، أركبتها سيارة الشرطة ثم نظرت له، بينما «السيوفي» ما زال يصيح فيه بأن يلقي مسدسه ثم قلتُ: «استسلم يا أحمد؛ فلم تعد هناك جولات أخرى، هل تعتقد أني لم أكُن أفهمك منذ البداية؟! إنك ذكي، لكني أستطيع أن أقول ببساطة أنك خسرت، خسرت تمامًا».

أخذ نفسًا عميقًا ثم نظر لي نظرة غريبة بان فيها الألم والحزن المختلط باليأس، وسرعان ما استحالت ملامح وجهه إلى من بان عليه أنه قرر شيئًا ثم قال: «لن أدعك تستمتع بنصرك يا كمال».. ثم، وبسرعة البرق، أطلق رصاصة على صدغه الأيمن فمه لتخرج الرصاصة من جانب رأسه وليسقط ميتًا إلى الأبد، سقط بعد أن عرف الحقيقة وتكهَّن بالأحداث التي آلت إلى ما هو عليه الآن، سقط لأنه يدرك جيدًا أنه لن يستطيع العيش مع الخسارة..

لن يستطيع أبدًا..

الجريمة الأخيرة

«دماء قذرة»

كان ذلك في مطلع التسعينات، حينما شرعت تلك الموضة الغريبة في الاستيلاء على عقول الشباب، موضة الموسيقى السريعة وتصفيفات الشعر المريبة أيضًا، كما أن البنطلون الجينز أضحى أهم سمات موضة هذا العصر؛ حيث صارت الفتيات ترتديه أيضًا، انتشرت بناطيل من ماركة «كونز» و«كامل» بشكل غريب حقًّا، وعلى مستوى السينما فقد أضحت السينما المصرية تجارية إلى أبعد مدى، وظهر ما يسمى بـ "سينما الشباب"، بينما أخذت السينما العالمية منعطفًا آخر؛ حيث أضحت الأفلام زاخرة بالخيال العلمي واتجاهات الدراما العميقة، كما كان هناك عدد كبير من الأفلام التجريبية التي تستحق التأمل، ربما تتساءل يا صديقي عن السبب وراء حديثي هذا عن حقبة التسعينات التي تعتبر شرارة الابتكار والاختلاف والتجدد والانحراف أيضًا لاستقبال ألفية جديدة مفعمة بالتساؤلات والتطلعات والاختلافات والترقب! في الحقيقة، إن التسعينات كانت، على صعيد عملي، من أمتع الفترات التي عملتُ خلالها على قضايا مختلفة، وتستطيع أن تقول إنها الأخطر على الإطلاق؛ لذلك دعني أقص لك تلك الحكاية التي حدثت بعيدًا جدًّا، وبالتحديد في لندن..

كنت في زيارة لمدينة الضباب، حينها اكتست وتزيَّنت المدينة الشمطاء في نهاية عام 1990 بالثلوج لاستقبال عام جديد، كان «الكريسماس» يدق الأبواب، والجميع في انتظاره، حتى أنا كنت في انتظاره؛ فقد قررت، على سبيل التغيير، أن أسافر وأقضي عطلة بداية العام الجديد بجانب صديقي «ريتشارد»، الطبيب النفسي، الذي فاجئني خبر فقدانه زوجته حديثًا. وفي الحقيقة، أنا لست من هؤلاء الذين يجيدون العزاء؛ لإدراكي الكامل أن حياتنا هذه ليست أكثر من تحضير لحياة أخرى مجهولة في مكان آخر كما تعلم، ولا أجيد فنون الصداقة كما تنص قواعدها، لكن هناك شيئًا يناديني باستماتة ودون توقُّف، يزن في أذني كذبابة عابثة، ويطن كنحلة نشيطة بلا كلل.

حينما وصلت إلى عتبة المنزل، توقعت أن أجد أكاليل من الزهور على الباب وعددًا كبيرًا من المناديل في بهو المنزل ملقاة هنا وهناك؛ فأنا أعرف «ريتشارد» جيدًا، رجل تتقاذفه العواطف وتتحكم به خصوصا حينما يتعلق بزوجته التي التقى بها منذ سنوات خلت وأحبها إلى درجة الجنون .. لكني، وللغرابة، لم أجد ثمة ما يشي بأن أي إنسان قد فارق الحياة هنا، ووجدت «ريتشارد» في انتظاري خلف الباب ملوحًا بيده وعلى وجهه ابتسامة، قد تكون ابتسامة مبتورة، لكنها تبقى في النهاية ابتسامة. دلفت وحيدًا، حيث قمت بترك حقائبي في فندق قريب، فأنا لا أطيق الإقامة مع شخصٍ أيًّا من كان، حينما دلفت وجدت عددًا لا نهائيًا من الأوراق والجرائد ملقى بشكل فوضوي على الأرض وعلى منضدة صغيرة تواجه التليفزيون

الكبير الموضوع في صندوق خشبي بطول رجل ضخم والمستند بهدوء وسكون على الحائط، في الحقيقة لم يكُن هناك أثاث يُذكر سوى أريكة كبيرة واسعة ومريحة وسجادة دائرية تغوص في كثافتها قدماي، جلست بجواره والأسئلة تنهشني، تطلَّع لي بعينين متسائلتين ثم قال:

«أهلاً بك يا كمال، أنا مقدر جدًّا قطعك كل تلك المسافة لمجرد زيارتي، أنا آسف أيضًا؛ فالمنزل في حالة فوضى كما ترى، كما أنني استغنيت عن معظم الأثاث بمجرد فراق لارا». توقف قليلاً وكأنما نطقه لاسمها أوجعه: «أحاول أن ألملم شتات نفسي منذ فارقتني». توقف لحظة مفكرًا وزاغت عيناه: «إن فراقها غريب وغير مفهوم على الإطلاق؛ فأنا في النهاية لم أملك شخصًا غيرها في هذه الحياة، والآن...»، وأشار بيده بما يعني أن الحياة أضحت خواء.

لمحت في عينيه دموعًا ولكنه لم يكن يجاهد في كبحها بل أحسست بأنه يستميت كي تسقط ولكن بلا فائدة حيث اضيقت عيناه وتقلصت ملامحه فبدا مظهره غريبا ولكن كل ذلك بدا بلا فائدة، الدموع سقوطها مريح كسقوط حِمل طالما أضنَّاك حِمله من على كتفيك، ثم التفت إلى الأوراق والتقط إحداها وشرع يقرأ، لم أتفوه بكلمة، ولكن دارت عيناي في المكان لأعطي لنفسي مساحة من التفكير والتأمُّل، وشرعت أسئلة كثيرة تتوالى على عقلي: «لم يحدث شيء حتى هذه اللحظة! هل يكذب حدسي لأول مرة؟! هل قطعت كل هذه المسافة وتحملت كل تلك المشقة من أجل لا شيء؟! ما الذي جاء بي إلى هنا من الأساس؟! أعتقد أن لا شيء

يحدث مصادفة أو هباء في هذا العالم! حتى تلك التفاصيل الصغيرة لا تحدث مصادفة، أليس كذلك يا كمال؟!».. قاطع أفكاري صوته وهو يقول: «هذا شيء غريب حقًّا».

فتطلعت إليه فوجدته ينظر في ورقة أمامه وقد بدا على ملامحه الاستغراب فقلت بهدوء ودون اكتراث: «ما الشيء الغريب؟!».

تطلَّع لي وبدا من نظرته كأنه يكتشف وجودي لأول مرة، ثم قال بعد أن أخذ نفسًا طويلاً أعتقد أنه كان يفكر خلاله ويكوِّن فكرة كاملة عن الأمر: «لقد كانت لارا في أواخر أيامها منكبَّة على كتابة عمل إبداعي، رواية إن صحَّ قولي، كما تعرف فإنها خريجة كلية الآداب جامعة ليفربول، قسم دراما، لكنها خلال كل تلك الفترة السابقة لم تحاول أبدًا أن تكتب شيئًا أو لنقُل إنها فشلت في كتابة أي عمل إبداعي واقتصر عملها على كتابة بعض المقالات النقدية في بعض الصحف والمجلات المحلية، لكنها لم تحقق شيئًا حقيقيًا، كانت تشعر بالفشل وتحس بملل حقيقي خلال الفترة الأخيرة مع إخفاقها المتواصل في إيجاد الفكرة التي تدفعها إلى كتابة عمل حقيقي يستحق النشر من خلال أي دار أدبية مرموقة في إنجلترا، ولقد حاولت كثيراً مساعدتها بكل طريقة ممكنة، ولكن للأسف باءت كل مجهوداتي بالفشل حتى... ماذا تشرب؟!».

توقَّف عقلي فجأة حيث اجتاحني استياء طفيف مع جملته الاعتراضية الأخيرة ثم قلت: «قهوة إن أمكن».

نهض من مجلسه بينما شرعت عيناي بلا إرادة تنظران في الأوراق دون أن أمسها، سمعته يقول في هذه اللحظة من غرفة

قريبة، ولكن صوته كان واضحًا: «كان ذلك في يناير المنصرم، أي منذ عام تقريبًا. لقد استطاعت، بفضل بعض زملائها الذين عرفتهم من هنا وهناك، أن تحصل على مقابلة صحفية مع القاتل المتسلسل جيم وورد، لعلك سمعت عنه!»، سكن قليلا وكأنه يفكر ثم أردف: «نعم، أعتقد أن ذلك فعلاً كان في التاسع عشر من يناير المنصرم».

تسمَّرت في مكاني واستيقظ عقلي تمامًا من يقظته المشوَّشة تحت ضغط التساؤلات من حقيقة وجودي في هذه اللحظة وفي هذا المكان تحديدًا بينما سمعته يقول وصوته يقترب أكثر: «إنه اليوم الذي بدأت فيه لارا كتابة روايتها - دماء قذرة - دماء قذرة هذا هو اسم الرواية»، ومد يده بالكوب لي فتناولته وأنا متطلع إليه راغب في المزيد، حيث أحسست بأن اللعبة أخيرًا قد بدأت.

«هل تعني أن تلك الرواية عن ذلك القاتل؟!»، تساءلتُ وكأني أوجِّه السؤال لنفسي أكثر مما هو موجَّه له.

فقال وهو يجلس بجواري: «أعتقد ذلك طبقًا لبعض المعلومات التي جمعتها من الجرائد من هنا وهناك بقدر ما استطعت.. في الحقيقة، أنا لم أسألها أبدًا بعد ذلك عن أي شيء، أنت تعرف لارا، إنها كتوم للغاية ولم تكُن تتحدث كثيرًا فيما يخص عملها، أعتقد أن ذلك نابع من إحساسها بالتدَّنيِّ أو القصور، أو ربما لإحساسها الدفين بالفشل؛ لذلك تُبقي كل شيء في طي الكتمان حتى يتحقق ما يستحق أن يُعلن عنه، وللأسف أعتقد أنها لم تصل لشيء في النهاية».

رشف رشفة من القهوة في يده ثم قال: «وفي الحقيقة، أنا شرعت في قراءة المسودة منذ أمس فقط، آملاً أن أجد مادة كاملة أستطيع

العمل عليها بمشاركة بعض الأصدقاء كي يتسنَّى لي نشر عملها الأدبي، لعل ذلك - كما تعلم - لعل ذلك يكون له أي معنى».

دمدمت في نفسي: «ومن قال إنهم في سباتهم الأبدي غير مستريحين؟!»، ثم قلت: «إنه لتصرف طيب منك يا ريتشارد».

«ليس ذلك هو مهما كثيرا، إن الأوراق التي أمامي تصف بدقة الجرائم التي قام بها جيم وورد، أو بمعنى أدق بعض الجرائم، الغريب أن جيم وورد لم يعترف بكلمة واحدة حتى هذه اللحظة، ولم يستطع أي أحد من الصحافيين أو المحققين أن يصل إلى معلومة كاملة منه، يتحدث قليلاً وتكاد تكون كلماته خلال التحقيقات التي أُجريت غير مفهومة، وحتى الآن لم يخضع لمحاكمات نهائية، كلها محاكمات ابتدائية يحاولون فيها إثبات أكبر عدد من التهم عليه؛ لأنه لا توجد أدلة كافية ضده على الجرائم التي تمت لإدانته، إنه يدَّعي البراءة، والغريب أن هناك بعض الناس الذين تعاطفوا معه ومع وضعه».

فكرتُ هنيهة ثم قلتُ: «هل تعني أن لارا عرفت منه كل ذلك بكل بساطة هكذا؟!، لا أعرف يا ريتشارد ! ولكن لِمَ لا تقول إنها كانت يائسة فكتبت كل تلك التفاصيل كي تستطيع أن تخرج بعمل أدبي زاخر ومثير؟!». في الحقيقة، أنا لم أصدق نفسي وأنا أقول هذه الكلمات وكنت أعرف أن الموضوع برمته أكبر وأشمل من ذلك بكثير ولكن لا مانع من التفكير بصوت عالٍ، «ريتشارد» في النهاية رجل فطن ويدرك جيدًا كيف تسير الأمور.

سمعته يقول: «ولِمَ لا؟! خصوصًا أني قرأت عن جريمة هنا تتوافق تفاصيلها تمامًا مع ما نُشر في الصحف، كما أن هناك تفاصيل تتوافق مع بعض الأدلة المثبتة لدى شرطة سكوتلاند يارد، وهذا لا يعني سوى شيء واحد بالنسبة لي، أن هذه الرواية ما هي إلا مذكرات القاتل المتسلسل جيم وورد».

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم قلت بهدوء: «وماذا في ذلك إذن؟! هذا أمر جيد، فلدينا رواية واقعية بتفاصيل دقيقة عن قاتل متسلسل، كما أنها، بشكل أو بآخر، تعد دليل إدانة يمكن تقديمه للعدالة، لقد نجحت لارا في النهاية، لكنها للأسف لن تهنأ بالاحتفال بهذا العمل الاستثنائي» أنهيت كلماتي بنبرة متأملة أسيفة.

تطلع لي «ريتشارد» قليلاً وقد بدا عليه الوجوم والألم ثم قال بنبرة متحشرجة: «كمال، ألم أقُل لك؟! الشرطة لم تعثر على جثة لارا حتى الآن!».

***

دار عقلي في دائرة قطرها ما بين مصر وإنجلترا، أخذتني الدهشة وطوَّقتني لثوانٍ بدت طويلة وشعرت بأن الأرض تميد من تحت قدميَّ، إذن لقدّ صدق حدسي، إن الأمر أكبر بكثير ممَّا كنت أتخيل يا صديقي، لقد بدأت اللعبة حقًّا، وإني على استعداد تام لاستقبال عام جديد هانئ ومترع بكل أنواع الملذات الممكنة، جريمة استثنائية في الطريق، لم آخذ وقتًا طويلاً ونحن نحتسي القهوة صامتين، طلب مني المساعدة؛ حيث بدا أنه ينوء بحمل ثقيل، رفعت يدي لكي أربت عليه ولكني للأسف عجزت عن ذلك واكتفيت بالنظر إليه

وهو يدس وجهه كاملاً بين كفيه، لم يكُن يبكي، لكنه كان يحاول بطريقة أو بأخرى أن يختفي أو يُخفي الوجود نفسه، طالعتُ بعض الأوراق المكتوبة بعد أن استأذنني كي يستريح لبعض الوقت، وقفتُ في الشرفة الواسعة متأملاً بعض الصفحات المكتوبة بالآلة الكاتبة، وشعرت بالدهشة وأنا أقرأ ذلك المقطع:

«القتل هو سمة الأقوياء، أن تنتزع نفسًا، أن تنزعها نزعًا من داخل ذلك الجسد الفاني ثم تقذفها إلى الحرية التي جاءت منها مرة أخرى، أن تعيدها إلى الوطن، القتل عملية استثنائية تُشعرك بمدى هشاشة الحياة ودونيتها المطلقة، وما نقدمه لقاء إتمام هذه المهمة هو العمل المقدس الذي يقرِّبنا من الوطن، من القداسة».

أخذتُ نفسًا طويلاً أمام تلك الفلسفة المنحرفة عن طبيعتنا، وتأملت الكلمات أكثر من مرة، وتساءلتُ في نفسي عمَّا حدث لـ«لارا»، ما الشواهد التي أكدت موتها من الأساس؟! وماذا حدث لها تحديدًا؟! وما علاقتها الحقيقية بسفاح كـ«جيم وورد»؟! أسئلة كثيرة شرعت تلح على عقلي في اللحظة التي قرع فيها باب المنزل، توقفت للحظة في مكاني متحيرًا، لكني أخذت قراري بفتح الباب.

رأيت من فوق كتف ضابط الشرطة صغير السن الواقف أمامي سيارة شرطة مضاءة أنوارها تقف في الخارج، نظر لي لوهلة متفحصًا ثم قال بلكنة إنجليزية سليمة جدًا وجادة أيضًا:

«لقد جئتُ من أجل السيد ريتشارد، هل هو موجود؟!».

دعوته إلى الداخل، بدت عليه الدهشة حينما لمح الفوضى المنتشرة في المكان ثم توقف في بهو المنزل متأملاً ومنتظرًا،

بمجرد صعودي السلالم التي تفضي إلى الغرف في الأعلى وجدت «ريتشارد» واقفًا على أعلى الدرج ينظر تجاهي بنظرة قلقة قائلاً: «لقد صحوتُ، لا ترهق نفسك، ثوانٍ وسأكون معكما»، ثم اختفى مرة أخرى عن ناظري، نظرت خلفي فوجدت ضابط الشرطة يومئ برأسه حيث سمع ما قال «ريتشارد».

حينما نزل «ريتشارد» بعد دقائق قليلة بدا شاردًا غير منتبه لما يقوله الضابط، وفي الحقيقة لم يكُن المفتش يحمل أخبارًا كثيرة، لكنها كانت كافية لأن تجعل الدم يتجمَّد في عروق «ريتشارد»؛ حيث أخبره بأن جيم وورد يريد رؤيته ولا أحد يعرف السر وراء ذلك، كما أخبره أنهم حتى هذه اللحظة ما زالوا في عملية بحث عن جثة «لارا» المفقودة، لِمَ يبحثون عن جثة؟! أمر محيرٌ حقًّا!، هل أقرّوا بحتمية وفاتها !، ما الدلائل التي قادتهم لهذه الحقيقة البشعة ؟!.

انصرف الضابط بعد أن أخبره «ريتشارد» بأنه سيفكِّر في الأمر دون أن يبدي أي ملاحظات على ذلك الطلب الغريب؛ حيث بدا كأنه يتوق إلى رؤيته بشكل أو بآخر، ربما يحمل معلومة تقوده إلى مصير زوجته المجهول حتى هذه اللحظة.

جلست بجانب «ريتشارد»، ولم يكُن هناك كلام كثير يُقال، لكن الفضول والأسئلة كادتا تنهشاني تمامًا، فما أريد معرفته حقًّا هو: كيف اختفت «لارا» من الأساس؟ ولِمَ اعتبروها في عداد الموتى؟ أو على الأقل لِمَ لا يوجد تفسيرٌ آخر لاختفائها؟! ويبدو أن «ريتشارد» سمع أفكاري في تلك اللحظة فقال بعد أن أخذ نفسًا عميقًا:

«إن لارا، قبل اختفائها بأيام، طلبت مني أن أسامحها عن كل ما ارتكبَتْ في حقي يومًا إن كانت بالفعل ارتكبت ما يستحق المسامحة. في الحقيقة يا كمال، إنها بدت غريبة منذ أن شرعت تزور جيم وورد، لم يكُن لديَّ أي معلومات أخرى عن زياراتها له سوى أنها تسعى إلى اكتساب معلومة تقودها إلى شيء مختلف، عمل إبداعي، تحقيق حلم يضعها على الطريق الصحيح. في الحقيقة، لم أكُن مهتمًا كثيرًا بالأمر؛ لأني كنت أعرف أن أمثال جيم وورد يتوقون إلى الشهرة أكثر ممَّا يتوقون إلى أي شيء آخر كما تعلم، فهم مهووسون بها».

فقلت: «ماذا تقصد بأنها بدت غريبة منذ أن شرعت تزور ذلك السفاح؟!».

بانت في عينيه الذكريات وهو يقول: «في الفترة التي سبقت اختفاءها، أضحت لا تجلس في المنزل كثيرًا، بل مر يومٌ أو يومان وهي غائبة عن المنزل، وقد اتصلت بي وأخبرتني أنها في مهمة عمل ويجب إتمامها وأن ذلك العمل سيجعلها أفضل، وفي الحقيقة أنا لم أهتم لكثرة مسؤولياتي في تلك الفترة وانشغالي التام بمرضاي، وبما أنها مستريحة وسعيدة بما تفعل فلم يكُن لديَّ مانع أبدًا، لكنها عندما عادت بدا الإعياء الشديد عليها، حتى إني أصررتُ على أخذها إلى الطبيب، لكنها امتنعت بقوة وأخبرتني أنها ستصبح أفضل، وبالفعل بمجرد أن جاء اليوم التالي وبعد أن نالت قسطا من النوم بدت في أفضل حال، لكن على جانب آخر تملَّك منها الصمت، عيناها زائغتان، تفكر كثيرا وتنزوي داخل أفكارها

لفترات طويلة، وتكتب كثيراً بلا توقُّف »، زاغت عينيه قليلا وبان فيهما التفكير ثم قال بلا مناسبة : «ربما لا تعرف أن جيم وورد مكث في السجن قرابة العامين حتى هذه اللحظة ولا أحد يعرف إلى أين وصلت التحقيقات، ولكن على ما يبدو أن هناك شيء غريب يحدث».

«ماذا تعني بأن شيئًا غريبًا يحدث؟!».

أخذ نفسًا طويلاً ثم قال: «أنت لم تطَّلع بعدُ على جرائم جيم وورد.. ولكن، كما تدري، فلكل قاتل متسلسل طريقته وبصمته المميزة في عالم الجريمة، هناك المقلِّدون طبعًا، وهؤلاء كثر على مر التاريخ الذي نعرفه، لكن جيم وورد يُعتبر فيلسوفًا، حتى إنه يكتب كتابه الأول الآن من داخل السجن، وأنت تدرك تمامًا أنه سيجد عشرات دور النشر التي ستتسابق على نشر كتابه، لك أن تتخيل: سفاح فيلسوف يكتب كتابًا من خلف القضبان، كم من مجنونٍ سيسعى إلى قراءته؟!».

ابتسمت، لكني لم أعلق، فقال وهو يلمس جبهته: «أنا الآن متعب، لكني لا أريدك أن تذهب، هل يمكنك المبيت معي هذه الليلة؟».

«لكني تركت حقائبي في الفندق وأنت...».

فقاطعني: «كمال، أنت أكثر إنسان يمكنه مساعدتي لإماطة اللثام عن هذه القضية».

***

استلقيتُ على الأريكة المريحة في غرفة المعيشة بعد أن أقسمت له مرارًا إنني سأكون أكثر راحة هنا، وفي الحقيقة أنا لم أكُن مرتاحًا على الإطلاق دون سرير دافئ في ليلة عاصفة كهذه، كنا ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر ولم يبقَ سوى يوم واحد على الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، الكريسماس. أطفأتُ المصابيح واستلقيت على الأريكة وأشعلت المدفأة التي لم ألاحظها إلا في هذه اللحظة، لقد كانت خلف التليفزيون، وبمجرد إزاحة الصندوق الخشبي الذي يوجد به التليفزيون يمكن إيجادها. في الحقيقة، إن كل تلك الإرشادات جاءت عن طريق «ريتشارد» المسكين قبل أن يخلد إلى النوم، فإن مسألة طلب جيم وورد غريبة حقًّا ومريبة أيضًا، لكنني واثق بأنها بوابة يجب استغلالها لحل لغز هذه القضية المثيرة.

أمسكتُ ببعض الأوراق في يدي متأملاً الكلمات المطبوعة بواسطة الآلة الكاتبة وشرعت أقرأ ما كتبته «لارا» عن جرائم ذلك السفاح، كان أسلوبها الأدبي تقريريًّا أكثر منه دراميًّا، لا عجب في أنها لم تستطِع إنجاز أي عمل أدبي من أي فئة؛ فالعمل الأدبي له كينونته الخاصة المتفرِّدة، خيال الكاتب المكتوب له مذاق وروح تجعلك تجزم بأنه واقع ساحر، أما ما أقرؤه الآن فهو أبعد ما يكون عن ذلك، لم يعنِني ذلك كثيرًا لأني أكملت القراءة راجيًا أن أجد ولو لمحة بسيطة تقودني إلى طرف الخيط الذي سيبدأ من خلاله كل شيء، كنتُ متعجبًا قليلاً؛ لأن الوصف الدقيق لارتكاب الجرائم لا يمكن صياغته بهذه الطريقة وبهذه البساطة إلا بأيدي القاتل نفسه، ربما يكون ذلك مرعبًا، لكن هناك كُتَّابًا كُثرًا أجادوا في

كتابة علم الجريمة (Criminology)، كما أن هناك من استخدم علم النفس بشكل رائع في صياغة الجريمة؛ حيث لا يمكن إنكار رواية «الجريمة والعقاب» للكاتب الروسي الخالد فيودور دوستويفسكي، التي يمكن الجزم ببساطة بأنها جريمة حدثت فعلاً على يدي كاتبها، ربما يكون ذلك رأيًا شخصيًا، ولكن بصفتي طبيبًا نفسيًا يمكنني أن أجزم بذلك دون أن يرف لي جفن، على العموم هناك شيء غريب هنا، يبدو غريبًا حقًا..

في الجريمة الأخيرة التي كُتبت هنا، يبدو أن جيم وورد أصرَّ على ضرب الضحية على رأسها بحديدة طويلة ثم دفنها في الحائط، ذلك لا يتناسب أبدًا مع طريقته في إتمام جرائمه السابقة، الوصف البارد للجرائم السابقة برمتها منحرف ومقزِّز على عكس هذه الجريمة، فهنا يصف بهدوء كيف يقوم بخلع ملابس الضحية ثم ممارسة الجنس معها، إن تلك النوعية معروفة، إنه أحد الأمراض النفسية المعروفة، نيكروفيليا (Necrophilia)، وهو انجذاب جنسي أو فعل جنسي تجاه الجثث، ولكن لا عجب في ذلك؛ فرجل كـ«جيم وورد» يمكنه أن يفعل أكثر من ذلك، لكن الغريب في الأمر أن تلك ليست طريقته المعتادة؛ فهو يقوم أولاً وعلى حسب جرائمه السابقة باغتصاب الضحية التي غالبًا ما تكون أرملة أو مهجورة أو يائسة بعد أن يقوم بتوثيقها ثم يشرع بعد ذلك في تعذيبها بالكيِّ مستخدمًا سيخًا حديديًا ملتهبا تم وضعه على النار لمدة طويلة على أماكن متفرقة من جسدها ثم إلقاء ماء مغليٍّ على الجروح حتى لا تستريح الضحية، ثم يقوم بتوثيقها جيدًا وربطها في السقف حيث تصير كذبيحة، رأسها

لأسفل، ثم يقوم بعمل جرح قطعي في رقبتها ويضع أسفلها إناءً نحاسيًّا تتجمَّع فيه الدماء، بينما يقوم خلال ذلك بحفر حفرة لتراقب الضحية قبرها خلال تلك العملية، وإما أن تموت وهي تراقب مصيرها، وإما أن تتعذب حتى النهاية وتُدفن حتى لو كانت حية..

تلك، ببساطة شديدة، طريقة جيم وورد.. أحد سفاحي القرن العشرين..

أخذتُ نفسًا طويلاً وشعرت بأن النوم قرَّر هجراني فنهضت من مجلسي وقمت بإعداد فنجان قهوة مركزة، سمعت نقر الآلة الكاتبة صادرًا من أعلى الدرج، تفكَّرتُ قليلاً وعرفت أن «ريتشارد» قد هجره النوم أيضًا وقرر أن يدفن أرقه في العمل، وقفتُ في الشرفة؛ حيث شعرت أني لا أشعر بقدميَّ جرَّاء الصقيع والثلوج المتساقطة، ولكن من قال إني لا أحب ذلك الجو؟ فأنا أكره جو مصر بما له وما عليه، وفي الحقيقة أنا أمقتها هي بذاتها، البلد الذي يسير بسرعة الصاروخ نحو الانهيار والجهل والعفن بالتأكيد ليس بلدي. في الحقيقة، أنا لم أحس يومًا بالانتماء إليه، على كل حال، أستطيع أن أرى المنازل المضاءة والمزينة بالأضواء المبهجة المختلفة، أضواء عيد الميلاد، أستطيع أن أستشعر ذلك الدفء وتلك الفرحة المصاحبة له واستعادة ذكرى العيد السابق والعيد الذي سبقه أيضًا.. هبت ريح خفيفة ومعها ولجت فكرة غريبة داخلي، فكرة مخيفة إن صح القول، لكنها تبقى فكرة أقرب ما تكون إلى الواقع؛ لذلك عليَّ أن أتقصَّى عن أمر كل شيء بإتقان وحذر، فلديَّ معارف كثر هنا.

***

جاء الصباح ناعسًا تغلّفه الثلوج البيضاء الجميلة، تدثرت بمعطف أعطانيه «ريتشارد»، الذي كان جالسًا أمام المدفأة شاردًا، يائسًا، يفكر فيما حدث لزوجته المسكينة، تطلعتُ إليه لبرهة مفكرًا في كل شيء وبأمر ما قرأته ليلة أمس في المسودة، نظر لي وبدا كرجل أقدم على قرار خطير ثم قال بهدوء وبنبرة غريبة: «سأقابل جيم وورد».

ابتسمتُ ابتسامةً تكاد لا تُلحظ؛ لأني لم أشك للحظة في أن «ريتشارد» سيرفض المقابلة؛ لأسباب كثيرة، أهمها فضوله كطبيب نفسي يرغب في مقابلة عبقرية في الشر وعقلية منحرفة كعقلية جيم وورد، كما أنه يرغب في أن يعرف ماذا قد يكون حدث لزوجته، هذا أمر أكيد، سؤال واحد شغلني ونحن في الطريق إلى السجن الذي يقيم فيه جيم وورد: كيف عرف «جيم» «ريتشارد»؟!

لم نتحدث خلال الطريق؛ حيث أضحى «ريتشارد» ساكنًا كمن يسوقونه إلى حتفه، كل ما فعله أنه قام بإجراء مكالمة تليفونية يخبر فيها السلطات قبوله برغبة جيم وورد، وفي الحال ودون تضييع وقت طلبوا منه الحضور؛ لأن جيم ببساطة اعتبر أن زيارة «ريتشارد» له بمثابة هدية عيد الميلاد.

حينما دلفنا معًا، أوقفنا مفتش شرطة يتمتع بوقار مهيب، يبدو أكثر طولاً لوهلة من طوله الحقيقي جرّاء المعطف الأسود الطويل الذي يرتديه فوق حلة سوداء أنيقة، ذو بشرة بيضاء، له وجه تبرز منه العظام، عينان زرقاوان لهما بريق ساحر وغامض ونظرات حادة لا تخل من مكرٍ، أنف قوقازي مميَّز، يعكس شخصًا ذات أصول

قديمة حيث تشي ملامحه بذلك وحسب ما قرأته عن الأشخاص التي قد تكون منحدرة من العائلات القديمة في انجلترا، تطلّع لي لوهلة ثم قال بهدوء ونبرة عميقة موجهًا كلامه إلى «ريتشارد»: «عيد ميلاد مجيد، أنا المفتش تشارلز كافنديش، من الآن وصاعدًا سأكون المسؤول عن قضية اختفاء السيدة لارا زوجتك».

صافحه «ريتشارد» وتمتم بكلمات لم أتبيَّنها، لكنها بدت كردٍّ على ترحيب من جانبه، ثم قام بتعريفي إليه فنظر لي نظرة نافذة وكأنه يدرسني ثم قال: «أهلاً دكتور كمال، هل تعرف دكتور واتسون رادكليف؟!».

فقلت متعجبًا وسعيدًا: «نعم، إنه أستاذي، لقد درَّس لي علم الجريمة حينما كنت أدرس هنا، كيف خمّنت أني أعرفه ؟!».

ابتسم دون أن يعلّق ثم قام بشرح التعليمات لـ«ريتشارد»، تعليمات لقائه جيم وورد وما عليه أن يفعله؛ لأننا، ببساطة، وحتى الآن، لا نعرف حقًّا إن كان يعرف معلومة عن مكان «لارا» أم لا؛ فالكثير من الصحافيين الطموحين يقومون بلقائه من أجل الحصول على سبق صحفي أو قصة قد تغيرِّ من مجرى حياتهم.

قام «كافنديش»، بعد ذلك، بتفتيش «ريتشارد» بنفسه مرة أخرى بعد أن قام أحد الضباط التابعين لشرطة سكوتلاند يارد بتفتيشنا وأخذ كل متعلقاتنا التي لا يجب علينا اصطحابها في الداخل على أن نستردها حينما نعود مرة أخرى.

دلف «كافنديش» حجرة مغلقة لا يوجد بها سوى منضدة مستطيلة نظيفة في المنتصف يحيطها أربعة كراسي، بينما توجد

ماكينة قهوة صغيرة على جانب الغرفة موضوعة فوق إفريز تم صنعه لها خصيصًا، كما توجد شاشات تليفزيون كثيرة على الجانب الأيسر من الغرفة، جلس على أحد الكراسي ثم طلب مني الجلوس، ثم قال بهدوء وهو يتجه صوب ماكينة قهوة: «قهوة؟!».

فأومأت برأسي موافقا فقال: «منذ متى تعرف ريتشارد؟!».

«منذ سنين طويلة، منذ أيام الدراسة».

أومأ برأسه متفهما دون رد، ناولني القهوة، ثم جلس وعاد بجسده إلى الخلف مغمضًا عينيه ومستسلمًا للراحة أو تصفية ذهنه من أي عوائق أو رواسب، احتسيتُ القهوة بهدوء وأنا متطلِّع إلى الشاشات المفتوحة التي تنقل بثًا حيًا لغرفة أخرى تشبه الغرفة التي نجلس بها مع فارق أنه لا توجد تليفزيونات أو ماكينة قهوة كما أنه لا توجد ثمة حركة، نظر لي «كافنديش» فجأة ثم قال مبتسمًا: «أنت مصري، أليس كذلك؟!».

«بلى».

أومأ برأسه دون تعليق، لكنه قال سريعًا: «لقد سمعت عنك بالمناسبة».

شعرت بمزيجٍ من السعادة والدهشة فقال: «لقد شاركتَ قبل ذلك في حل لغز قضية وقعت هنا في إنجلترا خلال وجودك في إجازة، أعتقد أن ذلك حدث منذ مدة ليست بالطويلة، أستطيع أن أرى في عينيك الكثير من الأسئلة، يمكنك الاعتماد عليَّ».

تطلعتُ له مبتسمًا ثم قلتُ: «كيف يعرف جيم وورد ريتشارد؟!».

فابتسم قائلاً: «عن طريق زوجته لارا، في الحقيقة يا دكتور كمال، لارا هي الشخص الوحيد الذي نجح في جعل جيم وورد يتكلم، وفي الحقيقة إنه لم يتكلم كثيراً؛ فالجلسات التي كان يجلسها بصحبتها وصحبة غيرها من الصحافيين لم تكُن بتلك الأهمية كما تعلم؛ لأنه لم يكُن يتكلم كثيراً، لكنه بشكل أو بآخر استطاع التواصل مع لارا، لا أعلم لماذا هي بالتحديد، لكنها محظوظة، لا أدري إن كان يجب عليَّ في هذه الحالة أن أستخدم كلمة حظ بعد ما حدث لها!».

«ولكن ألا تعرف لِمَ لارا بالتحديد؟!».

«أنت تدري جيدًا أن كل الزيارات مراقَبة، خصوصًا لسفاح كجيم وورد، ربما وصلنا لطرف خيط يمكن من خلاله الولوج إلى عقله، لكن المحامي الخاص استطاع أن يهيِّئ له جلسات خاصة مع لارا بحجة أنها ستقوم بكتابة قصة حياته، تلك القصة التي لدى ريتشارد، توجد لدينا نسخة منها بالمناسبة». اندهشتُ ناظرًا له، بينما بان في عينيه التفكير ثم قال:

«وأرى أنك يجب أن ترى ذلك المشهد».

توقف «كافنديش» عن الكلام ثم أدار فيلمًا على إحدى الشاشات فوقفتُ وشرعتُ في متابعة ما يحدث على الشاشة، كانت «لارا» تقف في مواجهة جيم وورد، بينما جلس الأخير وظهره إلى الشاشة، ساكنًا كالموتى، يبدو أنها كانت تصرخ في وجهه وقد بدا عليها الغضب المشوب بالاستياء، بعد ثوانٍ شرعت تبكي وقد جلست على الكرسي المواجه له، تبدو ضعيفة، بائسة ومتهدِّمة، بدا المشهد

غريبًا حقًّا، نهضت من مكانها تسحب أذيالها، ولكن قبيل انصرافها، رفع جيم وورد رأسه المغطى بشعر كثيف وابتسم تجاه الكاميرا، ابتسم ابتسامة مرعبة جمَّدت الدم في عروقي، قال شيئًا ما، للأسف الشاشة تعرض الصورة فقط من دون صوت، جلست «لارا» مرة أخرى وقد بدا على وجهها أنها صارت أفضل حالاً. انقطع البث فجأة فنظرتُ إلى تشارلز كافنديش مستفسرًا فقال: «كما ترى يا دكتور كمال، تلك كانت بداية الشرارة التي بدأ عندها كل شيء كما...»، توقف كافنديش عن الكلام فجأة ناظرًا تجاه الشاشات ثم اعتدل في جلسته مواجهًا الأخيرة فنظرت بدوري فوجدت شرطيين عملاقين يدلفان الغرفة، قال «كافنديش» بنبرة هامسة، لكنها واضحة وكأنه يودعني سرًّا: «سيدلف جيم وورد الآن».

لم أتوقَّع أن يكون جيم وورد بهذا الشكل، كان أكثر وضوحًا عن الفيديو السابق، وفي الحقيقة فإن الصور التي رأيتها في الجرائد لم تُظهره بالشكل الذي أراه الآن، بدا شابًّا طويلاً قوي البنية، شعره أسود طويل للغاية منسدل على وجهه، يمشي بصعوبة بسبب الأصفاد في قدميه ويديه، وتلوح على وجهه ابتسامة متحدية قذرة، يضع في فمه عود كبريت. في الحقيقة، أنا لم أحس بنفسي وأنا أقترب من إحدى الشاشات القريبة لوجهه وأحسست بالخوف حينما نظر فجأة تجاه الكاميرا وكأنه أحس بي ورآني، ثم ابتسم ابتسامة بانت من خلالها أسنانه البيضاء الناصعة السليمة كذئب شاب يتأهب لقيادة القطيع، على الجانب الآخر كان يجلس «ريتشارد» وبدا من هيأته أنه مبهور أكثر منه مرتعدًا، جلس جيم وورد بمساعدة العملاقَين ثم انسحبا

من الغرفة تمامًا، فنظرت تجاه «كافنديش» فقال وكأنه قرأ سؤالي: «لقد طلب أن تكون تلك الجلسة سرية، هذا طلبه الوحيد، وقد وافقنا على ذلك».

«لكنه يعرف أنه مُراقَب».

«لن يستمر ذلك كثيرًا».

وبالفعل اسودَّت جميع الشاشات وظهر عدَّاد للوقت على الشاشة، ثوان ودقائق فقط، نظر لي «كافنديش» بعد أن اعتدل ثم قال: «أين كنا؟!».

فسألته مندهشًا: «أنىَّ لمجرم خطير كهذا أن ينفرد بشخص عادي كريتشارد؟! ماذا إن هاجمه؟!».

ابتسم «كافنديش» ثم قال: «لدينا حسَّاسات حركة، إن تحرك جيم أي حركة غير طبيعية سيعرف فريق المراقبة وبدورهم سيعمدون إلى تشغيل الحساسات الكهربائية في الأصفاد والتي ستشل حركته في الحال، لا تقلق يا عزيزي، نحن لسنا في مصر».

ابتسمتُ ابتسامة قلقة، فقال: «كنت أتحدث عن لارا، للأسف دامت الجلسات فيما بينهما لمدة غير طويلة حتى أبلغنا زوجها باختفائها تمامًا، وكما تعرف نحن لم نتوصَّل إلى شيء حتى الآن، ربما تدرك الآن بشكل بديهي كيف يعرف جيم وورد ريتشارد».

فكرتُ قليلاً وأنا أنظر إلى الشاشات السوداء وعداد الوقت، ثم تساءلت في نفسي: «لِمَ يقص عليَّ تشارلز كافنديش كل ذلك؟!»، فسمعته يقول في هذه اللحظة: «سيد كمال، أنا أعرف جيدًا من

تكون؛ لذلك سمحت لك أن تكون هنا كي ترى كل ذلك، كما قمتُ بإطلاعك على اللقاء الذي على إثره وافق جيم وورد على طلب لارا كي تكون نافذته على العالم، وأؤكد لك أن ذلك كله على مسؤوليتي الشخصية ليقيني أنك رجل ذكي لا يهمه شيء في هذا العالم سوى العدالة، كما أنك رجل لا يطيق أن يظل لغزٌ أمامه بلا حل، أنا هنا أتطلع لمساعدتك، كما أني لا أستطيع مراقبة صديقك طيلة الوقتَ؛ لذلك سأحتاج إليك».

تسمَّرت في مكاني مستغربًا، لكني في الحقيقة لم أكُن متفاجئًا، ربما إحساسي ذلك جاء نتيجة الأفكار الكثيرة التي جاءتني ليلة أمس وأطارت النوم من عيني، ربما لأني سمعت ذلك مباشرة من شخص غيري ولكن لماذا يريد مني تشارلز كافنديش أن أراقب صديقي، الضحية في هذه القضية؟! فنظرت إليه متسائلاً: «لكن أنتم بالتأكيد راقبتم ريتشارد عن كثب وتعرفون جيدًا كيف تصلون إلى الحقيقة!».

ابتسم ابتسامة عريضة وهو يرمق عداد الوقت أمامه ثم قال: «بصفتي مفتش تحقيق، أشك في كل شيء حتى تنجلي الحقيقة أمامي، وحينها تنقشع الغمة وتزول الشكوك لتذهب أدراج الرياح، وأنا لم أقل هنا إني أشك في ريتشارد، بل أخاف عليه».

بدا عليَّ التساؤل والدهشة فقلت: «ماذا تعني؟!».

«أعني يا سيد كمال أن كل من جلس مع جيم وورد في جلسة كهذه لا بُدَّ وأن يصيبه الشك في اعتقاداته، فلا تتخيل أن جيم وورد مجرد قاتل سفاح، قاتل متسلسل عديم الضمير والحس الإنساني،

إن الأمر أكبر من ذلك؛ فهو رجل صاحب فلسفة خاصة جدًّا، قد تكون فلسفة منحرفة، لكنها تبقى فلسفة وإن تملكت عقل أحدهم لانجرف نحو الهاوية، ولا تتخيل أن كل ضحاياه وقعوا في حبه لمجرد أنه شخص وسيم فقادتهم الأقدار إلى مصيرهم الأسود!».

أخذ نفسًا طويلاً وهو يرمق العداد بريبة ثم قال: «لقد وصل عدد ضحاياه يا سيد كمال، حتى الآن، إلى 39 ضحية، لك أن تتخيل، هذا ما اكتشفناه حتى الآن فقط، والله وحده يعلم كم عدد ضحاياه الحقيقي، أي أنه ارتكب كل هذه الجرائم على مدار سنوات ولم يستطع أحدٌ التوصُّل إلى ماهيته إلا منذ سنتين فقط، الآن لا بُدَّ لك أن تُجزم أننا أمام عقلية متفرِّدة وطاغية، عبقرية في الشر سيتم تسجيلها على صفحات التاريخ، أنا لا أبجِّله، بل أحتقره، ولكن أنت تعرف كيف يصوِّر التاريخ مثل هؤلاء، إنه يذكِّرني بصديق قديم فقد كل شيء من أجل ذلك المجد المزيف»، ويبدو أن عينيه غامت للحظة إن لم أكن مخطئا وشاب نبرته شيء من الأسى ولكن سرعان ما استرسل قائلا : «لكن جيم وورد في النهاية سيكتسب المكانة التي طالما سعى إليها باقتدار، وعلى جانب آخر أنا أحترم العقليات العبقرية أيًّا ما كان اتجاهها».

أُنيرت الشاشات مرة أخرى، وظهر الشرطيان العملاقان وهما يقودان جيم وورد إلى الخارج، حيث التفت مرة أخرى تجاه «ريتشارد» الذي كان وجهه شاحبًا كميت تم انتشاله توًّا من داخل قبره، وقال جملة وحيدة ثم ابتسم ابتسامة مخيفة وانطلق خارجًا.

قبل أن يأتي «ريتشارد» إلينا، كنا قد خرجنا من الغرفة وذهبنا

إلى مكتب قريب من الغرفة التي كنا بها، لم يتكلم خلال تلك المسافة، ربما لإحساسه برغبتي بالتفكير لوهلة، قال لي قبل أن يحضر «ريتشارد»: «سيد كمال، إن رغبة جيم وورد كانت أن تتم تلك المقابلة بشكل سري لمدة خمس دقائق، لكني أؤكد لك أنه لا يحتاج إلى أكثر من خمس دقائق لفعل أي شيء لا يخطر لك على بال». تطلعت له وكلي حيرة، ثم قلت: «ولكن كيف لم يتم الإيقاع بجيم وورد حتى الآن لتتم محاكمته على كل تلك الجرائم ؟!».

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال: «جيم وورد لم يرتكب جريمة واحدة في مكان مأهول، كما أننا لم نجد حتى الآن سوى 12 جثة، وجاء كل ذلك عن طريق المصادفة.. مثلاً، حينما قام أحد المزارعين الذي فقد ابنته ذات الـ18 عامًا بهدم جدار في حظيرته، فوجد جثتها مدفونة هناك، وقد توصل الطبيب الشرعي إلى الأهوال المتوقَّعة التي لاقتها قبل دفنها بهذه الطريقة البشعة، لكن الاختفاءات التي حدثت، سواء للفتيات أو النساء المفقودات، تمت بالطريقة نفسها، آخر مرة تمت مشاهدتهن داخل سيارة أجرة (تاكسي) وبعد ذلك يختفين تمامًا وقد تم القبض عليه وهو يصطحب إحدى الفتيات داخل سيارة أجرة وحسب الأدلة القليلة لدينا وُجهت إليه الاتهامات».

«لكنه أنكرها!».

«لم ينكرها ولم يؤكدها يا دكتور كمال، تلك هي المشكلة، لقد خضع لأكثر من اختبار نفسي معقَّد وقد أكَّد أكثر من خبير أن عقليته غير سوية ولديه من السمات ما يؤهله لارتكاب تلك الجرائم، فأنت تدرك أن علم الجريمة معقد ولكنه مبني على رموز ونظريات نقارنها

بالحقيقة، كما أن بصمة جيم وورد في ارتكاب الجرائم مميزة، كل قاتل متسلسل، كما تعرف، له طريقته وبصمته التي تميزه عن أي قاتل آخر، كما أن المعلومات التي أخذناها من مذكرات لارا هي ما قادتنا إلى الضحايا، ولا تنسَ أن عدد الضحايا الورادين في المذكرات لا يتطابق مع عدد الاختفاءات المسجلة بالطريقة نفسها، أي أن هناك عددًا آخر لا بأس به قد قام بقتله، نحن أمام معضلة هنا ويجب حلها حتى تستريح الضحايا في قبورها».

«ولكن يمكن إثبات الجرائم عن طريق المذكرات التي كتبتها لارا، أليس كذلك؟!».

ابتسم ابتسامة تشبه الابتسامة التي نوجهها لصبي صغير لا يعي الحقيقة، ثم أخذ نفسًا عميقًا وأخرج غليونًا قديمًا مميزًا وأشعله ونفث سحابة من الدخان ثم قال:

«ليس الأمر بهذه البساطة، سينكرها بكل بساطة، سيقول محاميه إنها ملفقة للإيقاع به، هذا أمر سهل وأنت تدرك ذلك، على العموم سأقوم بالاتصال بك لاحقًا، أرى أنك يا سيدي قد نزلت هنا بفندق The need بوسط لندن، أعتقد أن ريتشارد يحتاج إليك وعليك أن تمكث معه حتى نستطيع الوصول إلى حل، وكُن على يقين أنك لن تنتظر طويلاً».

***

خلال الطريق، كان «ريتشارد» ساهمًا، شاحبًا، لا يتكلم، لم أستطع الولوج إلى عقله لمعرفة ما يفكر فيه في هذه اللحظات، فتح شباك سيارة التاكسي لاستنشاق الهواء حيث بدا وكأنه خرج لتوّه إلى

الحرية بعد إحساس مقيت بالسجن، بالانقباض والألم، لم أتفوه بكلمة، حتى إن تشارلز كافنديش لم يوجه له أي سؤال واكتفى بأن ودَّعه بابتسامة قائلاً: «لقد شرفتنا يا سيد ريتشارد، عيد ميلاد مجيد».

في الحقيقة، أنا دُهشت، فلم يحاول حتى سؤاله عمَّا دار خلال تلك المقابلة، لكني ومن واقع خبرتي أرى أن تشارلز كافنديش أذكى ممَّا يبدو، يستعد بشكل أو بآخر لأمرٍ ما، يفكر فيه ولا يريد إطْلاع أي شخص عليه أو حتى التلميح له بمجرد سؤال، وقبيل انصرافنا نظر لي نظرة ذات معنى مبتسمًا ثم انطلق في طريقه وراقبتُه بعيني حتى اختفى في بؤرة من السواد بشكل غامض، لم أعرف لِمَ أحسستُ إحساسًا غريبًا تجاهه وكأنه رجل أتى من عصر آخر، عصر مليء بالتحديات.

ترجَّلنا من السيارة أمام المنزل فمشى «ريتشارد» حتى وصل إلى المنزل ثم صعد إلى الطابق العلوي، سمعت باب الغرفة يصفق خلفه فعرفت أنه دلف غرفته وأغلق الباب عليه، نسي وجودي، بل نسي وجود الكون إن كان ممكنًا وصف ذلك بهذه الطريقة، جلست على الأريكة ناظرًا للأوراق التي تركتها «لارا»، للقصص الجهنمية التي وثَّقتها «لارا» على الأوراق وألَّفها جيم وورد مستخدمًا فلسفة منحرفة ودماء وضحايا لا ذنب لهم سوى أنهم عاشوا في عصره، سمعت طقطقة مفاتيح الآلة الكاتبة صادرة من أعلى فأخذتُ نفسًا عميقًا وأغلقت عيني غير مصدق ما يحدث، فلم أكُن أتخيَّل أن تلك هي الطريقة التي حلمت بأن أقضي بها ليلة عيد الميلاد..

في الحقيقة، إنها أكثر تشويقًا وحماسةً ممَّا أستحق.

***

كان وقت المغرب حينما جاءت إحدى صديقات «لارا» لزيارة «ريتشارد»، رحَّبتُ بها ثم استدعيت «ريتشارد» الذي بدا سعيدًا برؤيتها، وتم تعريفنا على بعضنا البعض، اسمها «جاكلين» وتُعتبر أقرب صديقات «لارا» لسنوات طويلة، بدا عليها الحزن العميق، وفي تلك اللحظة استغللت فرصة وجود أحدهم بجانب «ريتشارد» وذهبت إلى الفندق لإرسال حقائبي إلى منزله، كما أني أتطلَّع لبعض الصفاء الذهني بعيدًا عن جو الكآبة هناك، حتى يتسنى لي التفكير السليم حول كل ما يحدث، جلست داخل مقهى حميمي محتميًا من الثلوج المتساقطة ومستمتعًا بالدفء الذي يبثه كوب القهوة في يدي، وفي لحظة خاطفة جلس أحدهم أمامي مرتديًا قبعة، ظهر فجأة كأنه ظهر من الفراغ، كشبح، نفض عن نفسه الثلوج بهدوء وبحركات متأنية ثم خلع القبعة التي يرتديها ثم قال: «أهلاً بك مرة أخرى دكتور كمال».

ابتسمتُ على الرغم من المفاجأة قائلاً: «أهلاً سيد كافنديش.. في الحقيقة، أنا توقعت رؤيتك، ولكن ليس بهذه الطريقة».

لم يعلِّق على كلماتي، ثم طلب فطيرة تفاح وكوب قهوة سريعًا ثم نظر لي نظرة عميقة قائلاً: «شيء جيد أن تختلي بنفسك لبعض الوقت». أخذ نفسًا عميقًا ونظر من خلال الزجاج الفاصل بيننا وبين الشارع ثم قال: «لم تتغير لندن كثيرًا، لكنها كانت أكثر بهاءً فيما مضى». بانت في عينيه الذكريات والتمعتا بشكل غريب.

«آخر مرة شوهدت لارا يوم الأحد، منذ شهر تقريبًا، شوهدت في سيارتها وهي تقودها تجاه وسط لندن، وجدنا السيارة لكننا لم

نجدها، أكّد أكثر من شاهد إثبات أنها ركبت سيارة أجرة بعد ذلك، أنت تدرك بالطبع أن جيم وورد كان يستخدم سيارة أجرة لاصطياد ضحاياه».

ابتسمتُ قائلاً: «طريقة ذكية، سائق سيارة الأجرة شخص يستطيع أن يظهر دائمًا دون أن ينتبه له أحد».

فقال: «بالضبط يا دكتور كمال، حاولنا بشتى الطرق الوصول إلى السيارة أو قائدها، لكننا للأسف لم نصل إلى شيء». جاءت النادلة بالفطيرة والقهوة ووضعتهما أمامه، ابتسم لها على سبيل التحية ثم نظر تجاهي قائلاً: «دكتور كمال، ماذا تعرف عن جيم وورد بجانب ما عرفته حتى الآن؟».

فكرتُ قليلاً ثم قلت: «جيم وورد سفاح ذكي، حاله حال كل سفاح، يتطلع إلى المجد، حاله حال من يشبهه كالعادة، لكن السؤال الذي يحيرني قليلاً عن طلبه في زيارة ريتشارد: ما الداعي لذلك؟! وما الذي يريده منه من الأساس؟!».

قال وقد شرع في تناول الفطيرة: «أعتقد أن لديه خطة يرغب في تنفيذها».

استغربتُ قليلاً ثم قلت: «ماذا تعني؟!».

قال وهو يشير بالسكّين في يده: «أعني ما تفكر فيه يا دكتور كمال».

أحسستُ بالألم أكثر ممَّا أحسستُ بالدهشة، ثم قلت بنبرة صوت وقعت على مسامعي غريبة: «هل ذلك معقول؟!».

فقال «كافنديش» مبتسمًا: «كل شيء ممكن ومعقول في هذا العالم يا سيدي، أنت تدرك ذلك جيدًا، حينما ينفذ جيم وورد ما يرنو إليه، سيخرج حُرًّا طليقًا؛ لأنه في هذه الحالة سيكون لديه الدليل الدامغ على عدم إقدامه على أي جريمة كانت، وعلى جانب آخر إن جيم وورد يتواصل مع العالم من خلال الصحافيين ومحاميه الذي يستغل الأمر بكل طريقة ممكنة لإخراجه من خلف القضبان؛ فقضية كهذه ستجعله ينال شهرة لم يحلم بها يومًا، وللأسف لم نجد في منزل جيم وورد أي أدلة لإدانته، والشيء الوحيد لدينا هو مشاهدته بشكل غير واضح في إحدى الكاميرات أمام أحد الفنادق يصطحب إحدى الضحايا وقد أدلى لنا بأنها ترجَّلت من السيارة بعد نصف ساعة من ركوبها، بينما وجدناها، حسب المذكرات التي كتبتها لارا، في ضيعة رجل عجوز مدفونة أيضًا داخل حائط حظيرته، وللأسف لم يقُدنا أي دليل لتكذيبه أو لإدانته، لكنه كان كافيًا لإيقافه».

تفكرتُ قليلاً، حيث كان «كافنديش» يتناول قهوته في هذه الأثناء وعيناه مسلطتان عليَّ فقلت: «لكن كيف سيجعل الأمر يظهر على هذه الصورة؟!».

ابتسم «كافنديش» قائلاً: «أنت تعرف الإجابة، لكنك تأبى تصديقها».

فقلت: «السفاح المقلَّد».

فأومأ برأسه دون رد ثم قال: «بالضبط يا دكتور كمال، السفاح المقلَّد الذي فشل في المرة الأخيرة».

«فشل في المرة الأخيرة؟!».

ابتسم قائلاً: «أعتقد أنه فشل بشكل أو بآخر، وإلا فلِمَ يسعى جيم وورد إلى مقابلة ريتشارد؟! وبما أن حلقة الوصل قد ماتت فهذا يعني أنه لن يطول الأمر قبل أن يجد حلاً آخر، إن لم يكُن قد وجده من الأساس».

تفكرتُ قليلاً ثم قلتُ: «ولكن كل الضحايا من النساء».

قهقه «كافنديش» حيث امتلأ المكان بصدى ضحكاته ثم قال: «ليس الأمر صعبًا إلى هذه الدرجة يا دكتور، فما أكثر النساء الغبيات في زمننا هذا».

فقلت بنبرة حازمة: «وما المطلوب مني؟!».

فقال وهو يهندم نفسه مستعدًّا للانصراف: «أن تعرف وتراقب يا دكتور كمال، أن تعرف وتراقب».

ربت على كتفي ثم ارتدى معطفه وانصرف، اختفى تمامًا وسط الحشد المنطلق في اتجاهات متفرقة والضباب الكثيف الذي تتميَّز به لندن عن غيرها من المدن، بينما جلست في مكاني والشك ينهشني.

***

«أعتقد أن لارا تفتقد صديقاتها، ولا أشعر أنها تفتقدني على الإطلاق يا كمال».

تطلعتُ إليه وأنا جالس بجواره، بدا كمن أصابته لوثة، غير مهندم ويدمدم بكلمات لم أتبينها، كنت أستطيع الاستماع إلى أصوات

المحتفلين بليلة عيد الميلاد، كانت الليلة باردة تتساقط فيها الثلوج، لكن ذلك لم يمنع من الاحتفال، رجوته أن نخرج على سبيل التغيير، لكنه مانع ذلك بشدة وجلس في مواجهة المدفأة يتطلع إليها بعينين نافذتين وجامدتين، بدت أطرافه باردة جدًا كجثة حينما ناولته كوب القهوة، حاولت تسرية الأمر عنه، لكنه كان يحوم في مكان آخر كروح عالقة تائهة.

***

في اليوم التالي صباحًا، استيقظت من نومي على صوت «جاكلين» وهي تقرع الباب، فتحتُ لها الباب، فدخلت سريعًا وعلى وجهها ابتسامة رائقة وفي يدها طبق مغطى: «عيد ميلاد سعيد دكتور كمال، أتمنى أن يكون ريتشارد أفضل حالاً اليوم، لقد دعوته اليوم من أجل الغداء وأتمنى أن تكون برفقته».

شكرتُ لها طيب صنعها وأخبرتها متحججًا بأن لديَّ موعدًا اليوم.. بالفعل انصرفتُ بعد أن اطمأننت على صحة «ريتشارد» على الرغم من أن الإعياء كان باديًا عليه، لكنه أفضل حالاً من ليلة أمس، كنت في حاجة ماسة إلى زيارة المكتبة العامة بلندن كي أقوم ببعض الأبحاث، وبالفعل تركت «ريتشارد» الذي أخبرني أنه لا ينوي الذهاب إلى «جاكلين» وقد أخبرها بذلك وقد أذعنت له على الرغم من توددها ورغبتها الصادقة في التسرية عنه، ذهب إلى فراشه وانطلقتُ أنا في طريقي.

***

وضعتُ أمامي كتابًا عن أشهر سفاحي التاريخ، أمثال «زودياك»، الذي كان يرسل رسائل للشرطة ليقص لهم بالتفاصيل طريقة ارتكابه جرائمه، ساخرًا منهم ومن عدم قدرتهم على القبض عليه، كما حوى الكتاب قصة «جاك»، السفاح الذي وُضعت عدة نظريات لشخصه منذ عام 1888، ولكن لا شيء مؤكَّد عن هويته الحقيقية حتى الآن، كما تحدَّث الكتاب أيضًا عن السفاح الشهير «بيدو ألونسو لوبيز»، الذي ارتكب أكثر من 300 جريمة قتل بدم بارد لنساء وأطفال في بيرو والإكوادور، كنت أقرأ بنهم، ممعنًا النظر في كل التفاصيل التي يتمتَّع بها كل سفاح على حدة، لكني كنت أدرك في الوقت نفسه أني أبحث داخل عقلي عن خيط آخر يقودني إلى الحقيقة العالقة.. في الحقيقة، كنت أبحث عن الخيط الذي يقودني لمنع الجريمة الأخيرة.

وجدته في مواجهتي جالسًا، حيث انداح العالم من أمامي خلال قراءاتي وتفكيري العميق، أنىَّ للرجل أن يكون بمثل هذه الخفة؟! ذُعرت للحظة ناظرًا له فوجدته يقول دون أن ينظر إليَّ وهو يمسك كتابًا: «أعتقد أنه حان الوقت للتحرُّك الآن يا دكتور كمال».

فقلتُ: «إلى أين؟!».

فقال مبتسمًا وهو يرمقني بنظرة ذات معنى: «أنت تقرأ عن السفاحين، لكنك لم تقرأ عن مقلديهم، وبالتأكيد هناك ما يتم الآن في الظلام، ألا تدري يا دكتور كمال أنه لا ينقصني شيء في هذه القضية سوى أن تعرف كيف يفكر صديقك كي لا يتمكن القاتل المقلِّد من تنفيذ جريمته؟! لذلك أحتاج إليك».

تطلعتُ إليه مفكرًا للحظة، غاب عقلي داخل فجوة زمنية لا نهاية لها، المذكرات، طقطقة مفاتيح الآلة الكاتبة، «لارا» وذلك المشهد الذي رأيته وهي تبكي متوسلة، جيم وورد وابتسامته المخيفة، يدفنهن في الجدار، سيارة أجرة، «جاكلين»، عيد الميلاد، «ريتشارد»، المذكرات والجرائد، طقطقة المفاتيح، الطريقة التقريرية التي كُتبت بها المذكرات، المقال النقدي المفعم بحس أدبي رفيع الذي قرأته لـ«لارا»، السفاح المقلِّد، المقابلة الغريبة التي تمت بين جيم وورد و«ريتشارد»، المقابلة السرية التي اعتبرها جيم وورد هدية عيد الميلاد، ماذا يحدث بحق الله؟!

نهضت من مكاني مفزوعًا حتى إني نسيت «كافنديش» نفسه، لكنه أوقفني سريعًا قائلاً: «سأطلب قوات الدعم حالاً»، ثم أمسكني من كتفي وأخرج مسدسًا بهدوء ونظر له بريبة ثم أعطانيه قائلاً: «ستحتاج إليه بكل تأكيد يا دكتور، ولا تقلق؛ سأكون هناك».

***

نزلتُ من السيارة مسرعًا أمام منزل «ريتشارد»؛ حيث كان يخيِّم السكون المقبض على المكان كله، بينما لا يقطع صوت الصمت سوى صوت الأمطار الساقطة، دلفت المنزل مسرعًا وناديتُ بأعلى صوتي على «ريتشارد» ولكني لم أسمع شيئًا، لم يأتِني رد، لم أسمع ردًّا سوى عواء الرياح في الخارج ونقرات حبات المطر على النوافذ، فكرتُ سريعًا، نظرت حولي فوجدت أن مكان الصندوق الخشبي الذي يخفي المدفأة موضوع بشكل غير صحيح على عكس العادة، أزحته سريعًا فوجدت أن هناك أعمالاً تمَّت هنا، لقد

اختفت المدفأة بينما ظهر تجويف كبير في الحائط، تجويف يكفي لأن يوضع به شيء ما، شخص ما، ضحية ما.. بل هي «جاكلين» بكل تأكيد، «جاكلين» ولا أحد غيرها.

هرعت إلى منزلها القريب، وقعت أكثر من مرة مرتطمًا بوجهي على الثلوج التي أفقدتني إحساسي بأطرافي ثم وقفت أمام الباب وبحذر شرعت أفكر، لن أقوم بتلك الفعلة السخيفة، لن أطرق الباب، نظرت من خلال النوافذ المتاحة داخل المنزل لأسترق النظر، لأجد أي شيء أو علامة قبل أن أقوم بتلك الفعلة المتهورة، لكن التفكير لم ينل مني حيزًا كبيرًا بفضل الأدرينالين فضربت الباب بقدمي بكل ما أوتيت من قوة، ضربة واحدة حاسمة وقاضية، انفتح الباب على أثرها، كانت هناك، كانت تبكي بحرقة وبصوت مكتوم والهلع يتملّك منها، معلقة في السقف عارية إلا من ملابسها الداخلية، مكممة، تئن طالبة النجدة، تسيل الدماء منها لتنزل بهدوء في طبق نحاسي موضوع أسفلها على الأرض، نظرت حولي باحثًا عن القاتل المقلّد، ذلك القاتل الذي سيتسبب في خروج السفاح الحقيقي، الملهم الفيلسوف، من خلف القضبان، ناجيًا من الكرسي الكهربائي، إلى النور والحرية، لن أسمح بذلك، لن أعطيه تلك الفرصة، خرج من الظلام من ناحية المطبخ، خرج «ريتشارد» وقد التمعت عيناه ببريق غريب، أخذتُ نفسًا طويلاً وتحليتُ بالشجاعة، بدا غريبًا، مشعثًا، تحوم بعينيه نظرة جنونية، يمسك في يده سكينًا، تبدو وقفته ثابتة، أشهرت المسدس في وجهه بمجرد أن تحرّك خطوة إلى الأمام صائحًا: «قف مكانك يا ريتشارد؛ فلقد انكشف كل شيء

الآن، لقد قتلت لارا زوجتك بعدما أصابك الهوس بجيم وورد، أنى لطبيب مثلك أن يسلِّم نفسه إلى الشيطان بمثل هذه البساطة؟! كيف طاوعك قلبك على قتل زوجتك؟! وكيف استطاع ضميرك أن ينفذ هذه الجرائم البشعة؟! أنزِلْ جاكلين حالاً وإلا أطلقت النار عليك في الحال وكُنْ متأكدا أني لن أتوانى عن فعل ذلك مهما كلَّفني الأمر».

كان أنين «جاكلين» يدفع الأدرينالين في كل ذرة من جسدي، إصبعي مثبتة على زناد المسدس وأعرف أنني في لحظة ما سأطلق النار، نظر لي «ريتشارد» وقال بنبرة غريبة: «أنت لا تفهم شيئًا يا كمال، نحن لم نأتِ إلى هذا العالم إلا لكي نخلِّص أنفسنا من الجهل، علينا أن نحوم في فضاءات أوسع لنكتشف حقيقتنا التي جئنا من أجلها، لن يكون هناك مناص من تنفيذ ما خططتُ له، ولن يوقفني أحدٌ مهما حدث، الحياة ليست كما تعتقد، الحياة أعقد بكثير جدًّا، نحن جهلاء لا نعرف شيئًا، وعليَّ إتمام ما جئت من أجله كي أستطيع الوصول إلى القداسة، إلى الوطن الأم، إلى لقائه».

بانت في عينيه لمحة غريبة، وفي لحظة مريبة ومفاجئة رأيت ظلاً على الأرض لا ينتمي لي، ولا لـ«جاكلين» ولا لـ«ريتشارد»، هوى الظل بحديدة على، ولكني في اللحظة الأخيرة غيَّرت موضعي سريعًا وقفزت بعيدًا بقدر ما استطعت، لكن الحديدة أصابتني في ساعدي فانزلق المسدس من يدي، نظرتُ إلى أعلى وأنا على الأرض، لقد كانت هي، هي بكل تأكيد، لا تبدو مختلفة كثيراً.. إذن لم يكن ريتشارد منذ البداية هو القاتل ..

إنها هي القاتل المقلد ..

إنها «لارا»..

في اللحظة التي رفعت فيها الحديدة لتخلِّصني من هذه الحياة وهذا الهول، سمعتُ طلقًا ناريًّا، أغمضتُ عينيَّ للحظة، سمعتُ ارتطامًا وجلبة كبيرة، لقد أصيبت في كتفها بينما وقف فوقي شخص، يتطاير معطفه حوله، بدا مهيبًا وعلى وجهه ابتسامة، إنه تشارلز كافنديش، ابتسم لي ثم قال: «انهض يا دكتور كمال.. لقد تمت المهمة».

***

«الهوس بالمجرمين يا دكتور.. أليس كذلك؟!».. قال مبتسمًا وهو يجلس في مواجهتي في أحد المقاهي في شارع قريب من المستشفى الذي تقطن به «جاكلين»، حالتها النفسية متدهورة، ناهيك عن حالتها الصحية التي لا ضرورة للتحدُّث عنها كثيراً، إن الأمر أشبه بأن تعيش حياة كاملة تفهم شيئًا ثم تستفيق في يوم غائم لتكتشف أنك لم تكن تفهم أي شيء على الإطلاق، الأمر ببساطة يتلخص في كلمة واحدة، ألا وهي «الهوس».

نظرتُ إليه وقلت بهدوء وأنا أحتسي القهوة وما زالت يدي ترتجف بعض الشيء من أثر الضربة: «الهوس بالمجرمين بحد ذاته ظاهرة غريبة؛ حيث ينجذب الشخص إلى الأشخاص الذين قاموا بارتكاب جرائم مثل القتل أو الاغتصاب أو السرقة». ابتسمتُ بمرارة ثم أردفتُ: «أعتقد أن هذه الظاهرة ستنتشر كالنار في الهشيم مستقبلاً في البلاد العربية بكل أسف، التدني الأخلاقي وانهيار السلوك قد يدفعان المجتمع إلى ذلك، ناهيك عن متلازمة استوكهولم؛

فهنا الأمر مختلف تمامًا.. قد يكون شبيهًا به، لكنه مختلف؛ فأنت تدرك أنه في حالة الإصابة بمتلازمة استوكهولم يكون الشخص منساقًا تحت ظروف قهرية للامتثال للمجرم من أثر الصدمة، أما في حالتنا هذه فالأمر يتم بناءً على الاختيار، الاختيار الحر والإرادة الحرة التي تتمثَّل في الإيمان بمعتقدات المجرم والشعور بالاحترام والانجذاب نحوه ونحو معتقداته أيًّا ما كانت درجة شذوذها، إن الأمر برمته يدعو إلى التأمُّل».

ابتسم «كافنديش» ابتسامة هادئة ثم قال: «كنت تعرف يا كمال.. لكنك هذه المرة لم تكُن لتصدق المسألة كاملة في رجل فطن وطبيب ذكي كريتشارد».

قلتُ بمرارة: «في الحقيقة، إن شكي بريتشارد بدأ منذ أن سمعت نقرات المفاتيح على الآلة الكاتبة، كما أنه، على الرغم من إبداء حزنه من الفقدان الوهمي لزوجته، لم يقنعني بجانب أن المقال الأدبي الذي قرأته للارا كان ملهمًا ومليئًا بالتعابير الفنية والبلاغية، على عكس القصة المكتوبة، كانت جامدة تخلو من أي فن أو حس أدبي، أسلوب تقريري كأسلوب الأطباء».

قال «كافنديش»: «كما أن الجريمة الأخيرة المكتوبة، التي نفذها الاثنان، لم تكُن تتطابق مع جرائم جيم وورد كما رأيت، لقد أخفق الاثنان في تنفيذ الجريمة، ولذلك عمدا سريعًا إلى تضليل الشرطة باختفاء لارا ظنًّا منهما أننا لم نكُن نشك بهما. في الحقيقة، أنا أيضًا صدَّقت مقتل لارا على يد زوجها ولا أحد آخر؛ لأني ببساطة لم أصدق ريتشارد منذ الوهلة الأولى، كما أن سيارة الأجرة التي

اصطحبت لارا في هذا اليوم، اليوم الذي اختفت فيه، أوصلتها إلى نقطة ميتة ولم ينزل قائد السيارة منها، وبالتأكيد أن ريتشارد هو السائق في هذه الحالة ليضللنا كما تعلم».

أومأت برأسي مؤمِّنًا على كلامه ثم قلتُ بهدوء: «والآن، ماذا سيحدث؟!».

أطرق برأسه إلى الأرض وتنهَّد تنهيدة عميقة ثم قال: «للأسف، سيتم توجيه الكثير من التهم إلى ريتشارد ولارا أيضًا؛ فهما مُدانان بجريمة قتل والشروع في جريمة أخرى، كما أنهما مدانان بالاتفاق مع قاتل متسلسل، جيم وورد، لمساعدته للخروج إلى النور حُرًّا طليقًا دون أن ينال عقابه، ناهيك عن الأدلة الوهمية التي قاما بتقديمها لتضليل العدالة، السؤال الذي يلح عليَّ: أنىَّ لريتشارد ولارا أن يكونا بمثل هذا الهوس؟!».

ابتسمتُ ابتسامةَ العارفِ ثم قلتُ: «البشر معقَّدون للغاية يا سيد كافنديش، معقَّدون أكثر من اللازم، للأسف الجميع يدَّعي المحبة والغفران ويعاني الألم، لا أحد لديه الشجاعة الكاملة للاعتراف بمدى قذارته، كما أن أسباب الهوس بالمجرمين غير معروفة أو مؤكدة.. ولكن أظن، من وجهة نظري، أنه أمر مرتبط بالاعتقاد، مرتبط بوهم الأفكار المنحرفة، وللأسف وقع الاثنان في فخِّ فلسفة فاسدة يملكها رجل فقد عقله تمامًا وسلَّم نفسه للشيطان، كما أني أعتقد أن لارا هي القائد في هذه الحالة. إن ريتشارد يعشق لارا عشقًا منذ تلاقيا، ولأجلها قد يصيبه الهوس بأي شيء ينتشلها من حزن أو إخفاق أصابها».

تطلَّع لي وقد التمعت عيناه كالعادة ثم قال: «ولكن الوطن، القداسة، موجودان يا كمال».

ابتسمتُ ثم قلتُ: «لكن الأفعال المخزية نهايتها الجحيم».

قبل أن أنطلق نحو الفندق، توقفتُ للحظة كي ألقي السلام على «كافنديش»، تأملتُه للحظة وشعرت بأن هناك سؤالاً يلح عليّ فقلت: «لماذا تركتني أخوض تلك المهمة وحدي؟!».

ابتسم وصافحني ثم قال: «لست وحدك يا كمال، هذا يشبه تمامًا مجيئك من مصر، ألم يدعك القدر بلا سبب إلى هنا؟! أنت مسلم أتى لحضور عيد الميلاد! أليس ذلك غريبًا؟! كما أنني كنت أحتاج إلى عقل فطن وكيان قريب من ريتشارد».

ابتسمتُ وصافحتُه فسار عدة خطوات بعيدًا عني وقد ولَّاني ظهره، أوقفت سيارة أجرة، وقبل أن أركب نظرت تجاهه مرة أخرى، لكني وللغرابة لم أجده، تأملتُ الشارع الطويل وبحثتُ بقدر استطاعتي عنه لكني لم أجده، لقد اختفى، تلاشى، شيء غريب ولكن لا بأس، إنها عادته الغريبة، نظرت مرة أخرى إلى سيارة الأجرة الواقفة وتأملت السائق المبتسم ابتسامة غريبة فقال: «تفضل يا سيدي».

أغلقتُ باب السيارة بهدوء ثم قلتُ وقد شعرت بقشعريرة تسري في أسفل ظهري: «لا شكرًا، سأذهب سيرًا، سأذهب زحفًا إن تطلب الأمر ذلك، فلن أركب سيارات أجرة بعد الآن، لن أركب أبدًا».

لم أكُن أعرف تحديدًا كم الساعة الآن! أهو نهار أم ليل؟! فأنا ماكث في غرفتي هذه منذ وقت طويل جدًّا على ما يبدو، قررتُ الاستعانة بطبيب شاب أعرفه منذ مدة ليست بالقصيرة، ولكن بماذا سأخبره؟! لا أستطيع أيضًا أن أُطْلعه على هذه المذكرات؛ فهي مذكرات رجل ائتمنني، رجل ميت، بل رجل مقتول! حتى هذه اللحظة أشعر وكأن كل أبطال قصصه اجتمعوا وقاموا بقتله! وأحيانًا أشعر بأني أعرفهم جميعًا بشكل لا يُصدَّق، بتفاصيلهم وحكاياتهم الموحشة. وماذا عن هذا الجزء من تلك الكراسة اللعينة؟ ثلثها تقريبًا مذيَّل بعنوان واحد، أحداث غريبة، وبجانبها كُتب بخط جميل: «اقرأها إن شئت، لكنها لن تُفيدك». قلبتُ صفحاتها سريعًا لأني أشعر برغبة في قراءتها، أنا لم أنتهِ بعدُ من الجزء الكبير من تلك المذكرات، الجزء الذي سيقودني إلى الحقيقة التائهة كما أخبرني دكتور كمال، أحيانًا أشعر بأنها راسخة أمامي، ولكنها سرعان ما تذوب وتتلاشى كشبح رسمته عيناي ضعيفتا البصر. لا بأس، سأقرأ تلك القصة الآن وبعدها سأقرر إن كنت سأستعين بطبيب أم لا. انتظر، ما الذي يحدث؟! وما هذا الصراخ اللعين الذي يطن في أذني؟! هل هو حقيقي أم أنه عقلي المضطرب؟! غريب حقًّا! لقد أصبح الأمر مكررًا بشكل غريب، تلك الصرخات أضحت لا تنقطع تقريبًا. على العموم أنا أحتاج إلى بعض الراحة ولكن ليس الآن..

ليس الآن أبدًا..

داتشو

كان الجوُّ موحشًا، الرياح تعوي وتضرب الكوخ الذي بدا أنه على وشك التحطُّم بدوره، كان دكتور «هنري» ثابتًا بجوار «داي كينج»، يتابع حالته، لقد قام بليٌّ إبهام القدم، كما قال لي إنه يساعد القلب على العودة إلى المعدل الطبيعي للضربات، سمعتُ حفيفًا ثقيلاً في الخارج، صار الجو باردًا في بلاد لا يتحكَّم فيها البرد بهذا الشكل، انفتح الباب الخشبي فجأة بفعل الرياح التي ضربته، فانتفض جسد «داي كينج» في مكانه بشكل مقلق، لكنه لم يفتح عينيه، عمَّ الصمتُ فجأة على الكون، صوت الصمت المهيب المقلق والمحفِّز للأعصاب، ذلك الصمت الذي ظلَّ يطنُّ لثوانٍ طويلة في آذاننا حتى كدت أصرخ من وقعه، فجأة انتفض جسدُ «داي» وارتجف بشكل بائس يثير العواطف الدفينة، جريتُ باتجاهه لأمدَّ يد المساعدة إلى «هنري» الذي صرخ قائلاً: «إننا نفقده.. إننا نفقده يا كمال».

نظرتُ على الجهاز الذي يوضِّح معدَّل ضربات القلب ومستوياته بجوار السرير وهو يرتطم بالأرض ويتحطم في اللحظة التي حملتنا فيها الرياح وصدمتنا بأقرب مكان حولنا، نظر إليَّ «هنري» بعينين فزغتين حيث أصيب في يده ونزفت بينما نقلت

بصري تجاه «داي كينج»، لم أكُن أصدِّق ما أراه، لم أكُن لأصدق على الإطلاق..

***

عام 1985، كنت في رحلة إلى الولايات الأمريكية لزيارة صديق أعرفه منذ سنوات طويلة، كانت لنا رحلة مرعبة خضناها معًا وسط الغابات لمدة غير قليلة. في الحقيقة، كادت تلك الرحلة تقضي على ما تبقَّى من أيامي في هذه الحياة، وفي الحقيقة أيضًا، أنا لم أتوصَّل إلى حلٍّ تلك القضية التي تحمَّلتُ من أجلها مشقة السفر لمسافة ما بين الشرق والغرب، كنت منهكًا ومحبطًا والفشل يبتسم متحديًا مُظهرًا أسنانه اللامعة في وجهي. لا تتعجَّب يا صديقي؛ فأنا لست فان هيلسنج الذي لم يُشق له غبار أمام كل قضاياه الدموية وحكاياته المرعبة والمسلية أيضًا مع مصاصي الدماء، ولست أيضًا شيرلوك هولمز الذي يحل معظم قضاياه بمجرد إلقاء نظرة متفحصة على ضالته، حتى «شيرلوك» وقفت أمامه بعض القضايا التي استحال حلها. على كلِّ حال، كنت أجلسُ وحيدًا في غرفتي أفكِّر في الرجوع إلى بلدي حاملاً حقيبتي وفشلي وألمي على ظهري.

دقَّ جرس الهاتف في غرفتي، في الفندق الذي أمكث فيه في ولاية ميتشجن، عرفت أن هناك مَن ينتظرني في البهو، لم يكُن لديَّ الرغبة في استقبال أي شخص، بل والتحدث إليه أيضًا، لكننا في أمريكا، ولا يعرفني الكثيرون هنا، ومَن يطلبونني بالتأكيد لديهم شيء مميَّز ليقدموه لي، ربما يكون عزاء عن تلك الخيبة الأخيرة، أتساءل أحيانًا: كيف يعرف هؤلاء وجودي من الأساس؟! ولكن

يبدو أنها معادلة سهلة؛ فالأمر سهل في شرحه؛ فإنه كجذب النور للفراشة، أو المغناطيس للمعادن. على العموم، قررتُ - بعد تردد المتكبرين حينما يصفعهم الفشل ويناوشهم الفضول - النزول لاستقبال ذلك الزائر الغامض.

وقفتُ في مواجهته لبرهة، يبدو من هيأته أنه من المهاجرين الآسيويين لهذا البلد الكبير الذي يبتلع الطموحات والآمال، تعكس نقوش وجهه، على الرغم من بهوتها، عمره الثلاثيني، قصير القامة، يبدو عليه التوتر والريبة والحزن، يرتدي سروالاً أزرقَ وقميصًا أبيضَ، له نفس الملامح الآسيوية التي يملكها ذلك العِرق، أحيانًا أتساءل: كيف يعرفون بعضهم البعض بتلك الملامح الغاية في القرابة؟! لكنه سؤال سخيف كما تعرف؛ فهم بالتأكيد يروننا أيضًا على تلك الشاكلة ويتساءلون أيضًا السؤال نفسه، سلَّمتُ عليه ثم دعوته بإيماءة من رأسي للجلوس على منضدة جانبية بعيدة نوعًا ما عن ضجَّة المكان، لم أقُل شيئًا ونظرت في عينيه لأستشفَّ أي معلومة عن ذلك الكائن المنتمي إلى البلاد البعيدة، فقال بصوت مهزوز وعميق لا يتناسب مع هيأته ولا حجمه الصغير: «دكتور كمال، أنا أستنجد بك، أرجوك ساعدني».

قلت بهدوء: «ما الأمر؟! أرجو أن تكون موجِزًا وسأرى إن كان الأمر يستحق المعاناة!».

فقال: «لا يوجد شيء في هذه الحياة يستحق المغامرة أكثر من مغامرة الموت».

انتبهتُ له ثم هززتُ رأسي له بهدوء كي يكمل حديثه، فقال:

«تعود جذوري إلى قرية بعيدة كل البعد عن هنا، أنا نتاج سلالة مهاجرة منذ سنوات طويلة بعد أن جاء أجدادي بوالديَّ بعد رحلة مثيرة كادا يفقدان خلالها حياتهما إلى هنا هربًا من الحرب، حرب فيتنام كما تعلم، ولقد تُوفي والدي إثر أزمة قلبية بعد أن وُلدت بثماني سنوات تقريبًا، والغريب أن والدتي أيضًا تُوفيت بالأزمة القلبية نفسها، ومنذ يومين وأنا أشعر بألم غريب في صدري تماثل أعراضه تمامًا الألم الذي شعر به والداي قبل موتهما»، ثم اقترب مني وهمس وكأنه يودعني سرًّا: «إن الموت يحاصرني يا دكتور كمال».

ابتسمتُ بهدوء ثم قلتُ: «يبدو أنك أخطأت مسعاك وضيَّعت وقتي، أنا لست طبيبًا بشريًّا». ثم نهضت من مجلسي وقد تسلسلت إلى الخيبة، لكنه قال بنبرة يشوبها الرجاء وهو ينظر لي:

«أنا حالة من ضمن مئات الحالات يا دكتور كمال»، ثم أخرج من سترته أوراقًا موضوعة داخل كيس بلاستيكي شفاف ووضعها أمامي، نقلتُ بصري بينه وبين الأوراق مترددًا ودون أن أجلس تناولتها ثم فتحت الكيس بهدوء وأنا أرمقه بريبة بينما عيناه مسمَّرتان عليَّ، أخرجت الأوراق وفتحتها ثم شرعت في قراءتها، كانت تقارير مختلفة، ما بين تقارير طبية وتقارير حصر للوفيات ما بين عامي 1982 و1985، بدا الأمر مريبًا بالنسبة لي، دون أن أشعر جلست على الكرسي وأنا أدقِّق في بعض التقارير الصادرة عن قسم السيطرة على الأمراض بالولايات المتحدة، ووجدت بعض النقاط المهمة التي حوتها دراسة من ضمن دراسات متعددة مشار إليها في الأوراق،

تكشف عن أن الأشخاص المتوفين قد عانوا أعراضًا مبكرة في الأسبوع السابق للحدث النهائي - الموت - مثل ألم الصدر عند ما يقرب من 52% من الضحايا، وضيق التنفس عند 22%، وإغماء عند 7%، بينما 19% لم يعانوا أعراضًا.

نظرتُ له ثم قلت: «هل قمت بإجراء فحوصات طبية؟!».

فقال: «الأمر واضح، لكني على الرغم من ذلك قمت بذلك وستجدها بين الأوراق».

قلبتُ الأوراق فوجدت تقريرًا طبيًا يخصه واتضح أن اسمه «داي كينج»، ووجدت أنه لا يعاني مرضًا أو عرضًا يناسب ما يشعر به من آلام متكررة في الصدر، فوجدته يقول: «أنا أتمتَّع بصحة جيدة طوال حياتي القصيرة، ولم أعانِ خطبًا يتهددني، وأؤكد لك أني سأموت خلال أيام...».

فقاطعتُه قائلاً: «العمر بيد الله وحده، هو وحده من يقرر مصيرك وعدد أيامك على هذه الأرض، لكننا في النهاية نأخذ بالأسباب».. وفكرتُ قليلاً ثم قلتُ: «لكنك تدرك تمامًا أن الأمر كله ليس له علاقة بمجال عملي؛ فأنت لست مجنونًا كما أرى، ولا يُهيَّأ لي أنك تعاني متلازمة ما، كما أنني لست مخوَّلاً بالتقصي في أمرٍ من الواضح أنه مثار العلماء في هذه المرحلة، يمكنني فقط أن أدلك على طبيب متخصص ذي علم يستطيع أن يساعدك».

ركع «داي كينج» فجأة على قدميه وقال وهو يبكي: «أرجوك يا دكتور كمال، أنت الوحيد القادر على مساعدتي، ولا يوجد طبيب آخر في العالم يستطيع ذلك غيرك، لقد ساعدت الكثيرين على

مرّ حياتك، فلِمَ تتركني أنازع الموت وحدي؟!». نظرت حولي إلى مريدي البهو شاعرًا بالإحراج في هذه اللحظة، ثم نقلتُ بصري إليه وانحنيت وأمسكته من كتفيه وأوقفته على قدميه قائلاً: «عليَّ أن أتأكَّد من شيء مهم أولاً».

قمتُ بعمل اتصال هاتفي بطبيب إنجليزي صديق يقيم في أمريكا، أعرفه منذ مدة طويلة، متخصص في أمراض الصدر والقلب، ثم أخذت «داي كينج» واتجهنا إليه.

في العيادة، كان صديقي الطبيب الإنجليزي «هنري ماير» يفحص «داي كينج» بتأنٍّ وهدوء إنجليزيين لا مثيل لهما، أمسك صور الأشعة في يده ثم قال: «كما ترى يا كمال، لا شيء أبدًا يعانيه الصدر أو القلب، كما أنه لا يوجد ما يدعوه إلى هذا الذعر».

كنت قد شرحت له الأمر برمته فوجدت أنه على علم بهذه الحالات فقال: «كمال.. إن محاولة النبش في قصة معروفة منذ سنين كأنك تلهو بالنار؛ فقد ظهرت هذه الحالات بشكل واضح عام 1977، في بلدي إنجلترا، اكتُشف عدد قليل تنتمي لهذه الحالات عام 1981، لكن علماء الطب لم يتوصلوا لأي شيء، لقد اُكتشفت أول حالة عام 1977 بين اللاجئين من جنوب شرقي آسيا يطلق عليهم : (همونغ)، وهم جماعة ينتمون إلى الجبال ومنتشرون في مناطق معينة من شرق آسيا، المدهش أنه منذ عام 1980 وحتى يومنا الحالي، وصلت الحالات إلى 170 حالة من الرجال، وحتى الآن لم يصل العلماء إلى شيء يتعلَّق بهذا الأمر، لقد درستُ بعض الحالات نظريًا لأنها مرتبطة بعملي كما تعلم، لكني في الحقيقة ولَّيتها جانبًا؛

لأنها تعد حالة استثنائية شاذة لا نتعرَّض لها على الإطلاق تقريبًا».

ثم أخذ نفسًا عميقًا وهو ينظر إلى «داي كينج»، ثم قال: «كما أني قرأت عن معتقداتهم، وأعتقد أني قرأت أن الأمر مرتبط بخرافة ما لديهم، وربما أن صديقنا هنا يؤمن بتلك الخرافة، وهذا ما يزيد الطين بلة».

تطلَّع لنا «داي كينج» ناقلاً بصره بتوتُّر وريبة فيما بيننا، وقد بدا عليه التبلُّد ثم قال: «أنا لا أعرف شيئًا عمَّا تتحدثان عنه».

هزَّ «هنري» رأسه ثم قال وكأنه يصرفنا لأننا ضيَّعنا وقته: «على العموم، كما تعرف، أنا على وشك مغادرة أمريكا، تلك البلاد الغبية التي يتحدثون الإنجليزية فيها بلسان مشوه». فضحكتُ لأني أعرف طباع الإنجليز جيدًا وأعرف أيضًا أنهم يعتبرون الأمريكيين كائنات ضالة مشوهة أقل شأنًا من أن يستخدموا لغتهم السامية، سرحتُ قليلاً بينما دار حديث بين دكتور «هنري» و«داي كينج» في مسألة الموت المفاجئ تلك فناوشتني فكرة مجنونة كتلك الأفكار التي كثيرًا ما تهاجمني بلا سابق إنذار، فقلت والحماس يتقد في عيني:

«دكتور هنري، أفهم من كلامك أنك غير مرتبط بمواعيد وأن سفرك أوشك، وأنه ليس لديك مانع كطبيب فعَّال في المجتمع أن تخوض مغامرة استثنائية».

تطلَّع لي الاثنان مشدوهين من تلك الحماسة التي دبت في، لكنني أخرجتُ ورقة من بين الأوراق التي يحملها «داي كينج» ووضعتها أمام «هنري»، فتطلَّع لها متوجسًا فلمحتُ اتساع عينيه المعتاد حينما يرى ما يثيره، ثم تطلع إليَّ مستغربًا وقال: «دكتور

كمال، أنت رجل مهووس، هذا أمر مفروغ منه، وما هو أمامي الآن ليس أكثر من خزعبلات لا أستطيع تصديقها ولن أصدقها ما حييت». ثم صمت لبرهة وهو ينقل بصره بين «داي كينج» وبيني ثم قال:

«ولكني يا سيدي، أؤكد لك أني في حاجة ماسة لمغامرة مع الموت، سنغادر على أول طائرة».

***

كنا في المطار، ثلاثتنا، لم نكُن نتحدَّث كثيرًا إلى «داي كينج»، الذي بدت عيناه زائغتين مستغرقًا في التفكير في عوالم أخرى طيلة الوقت؛ فبعد مجهود جبَّار أقنعته بضرورة مرافقتنا إلى بلده الأم، لاوس، أو جمهورية لاو الديمقراطية الشعبية، هي بلدة غير ساحلية، تقع في قلب شبه جزيرة الهند الصينية، يرجع تاريخ ما يُعرف حاليًا بدولة لاوس إلى عشرة آلاف عام مضت؛ فقد كشفت أعمال التنقيب عن أدوات حجرية ومجموعة من الجماجم والهياكل العظمية البشرية، التي أكدت قِدَم تاريخ هذا البلد وعراقته، فقد كان الشعب اللاوسي من أوائل من استخدم الحديد في صناعة أدوات المعيشة.

مما عرفناه من «داي كينج» أنه ينتمي إلى «الهمونغ»، وهي مجموعة عرقية آسيوية من المناطق الجبلية توجد بفيتنام ولاوس وتايلاند وبورما. هنا توقفنا قليلاً ونحن نجلس في الطائرة متجهين لمسافة طويلة جدًّا نحو لاوس؛ لقد أوضحت التقارير أن معظم المصابين بهذه المتلازمة ينتمون إلى قبائل «الهمونغ» من لاوس

وشمال شرقي تايلاند، كما أوضحت التقارير أيضًا أن المصابين دائمًا ما يكونون في متوسط 33 سنة ويتمتعون بصحة جيدة، إن الأمر يزداد حماسة، متلازمة فتّاكة تسبّب الموت دون أن تترك خلفها أي خيط ولو حتى رفيعًا نستطيع من خلاله فك ذلك الطلسم المعقد.

لم أكُن أعرف تحديدًا لِمَ نحن متجهون إلى لاوس، لكنه الفضول كما تعلم، هذا هو التعريف الحقيقي للمغامرة، أن تختار طريقًا ما وتترك الأقدار تلهو بك، إن تكبُّد تلك المشقة لا بُدَّ أن يؤتي ثماره بشكل أو بآخر، كما أن ذلك المسكين النائم بجواري، إن كان نائمًا فعلاً، يعرف، بل متأكد، أنه سيموت خلال أيام قليلة، هل تستوعب ذلك؟! فقط تخيل أنك تعرف أنك على وشك الموت خلال أيام معدودة؟! ماذا سيكون إحساسك وقتها؟! وماذا ستفعل؟! الموت هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن مواجهته، بل هو المنتصر الوحيد في كل معاركه، الذي استسلم له كل ضحاياه ببساطة تامة، الإحساس بأنك ستُمحى من الوجود، بأنك لن تكون حتى ظلاً على الأرض، هو إحساس غريب؛ لذلك لا نفكر فيه أبدًا، نبعده عن أقصى بؤرة من أفكارنا حتى لا يعرقلنا فنسقط في هوة سحيقة لا قرار لها.

لقد أشار عليَّ دكتور «هنري» أن نذهب إلى قرية «داي كينج» الصغيرة، ومن هناك يمكننا البحث عن أي أقارب متاحين له، ربما كان الأمر، على حد قوله، مقترنًا بأحد أقاربه الذين عانوا تلك المتلازمة بشكل أو بآخر، أو ربما أحد المعارف الذين يمكن من خلالهم أن نصل إلى حلٍّ في تلك المسألة، الغريب في الأمر أن

دكتور «هنري»، الخمسيني الوقور، الإنجليزي العنيد، كان متحمسًا لتلك الرحلة أكثر مني أنا شخصيًا، أعتقد أن الرجل يبحث عن مغامرة استغرق البحث عنها سنوات طويلة أو لنقُل تاهت وسط زخم الحياة وتحقيق النجاح، الحمد لله أني مجنون يقوده عقله صوب المغامرات بل والموت أحيانًا.

***

وقفنا في مدينة صغيرة اسمها لاك ساو، تتمتَّع بمناخ معتدل جيد، كان مظهرنا غريبًا بالنسبة لقوم لا يزورهم الغريب إلا قليلاً، لا تنسَ أن لاوس ذاقت مرارات الحروب على مرِّ تاريخها، منذ عام 1354م، حين قام الملك فانغون، على رأس 10 آلاف مقاتل، بتأسيس مملكة فان أكسانغ، وتوالت الحروب في فترات مختلفة من تاريخها حتى الاحتلال الفرنسي الذي تم الاستقلال عنه في عام 1953؛ لذلك يجب علينا توخِّي الحذر بعض الشيء، لكننا، على العموم، لم نجد ما يضيرنا، توقف «داي كينج» مع بعض الناس الذين ينتمون إلى عرقه وكانوا ينظرون له وكأنه حيوان أليف لم يروه من قبل، فظلوا يتفحصونه بدقة وعلى وجوههم ابتسامة، والغريب في الأمر أن «داي كينج» لم يكُن يتحدث لغتهم، وذلك راجع إلى والديه اللذين لم يأبها لتعليمه لغتهما الأم بحجة أنه لن يعود إلى هذه البلاد مطلقًا مرة أخرى.

كانت الأراضي الزراعية منتشرة على الجانبين حين سَيرِنا، ولم تكُن هناك وسيلة للتنقُّل سوى السير لمسافة طويلة ونحن نحمل حقائبنا، لكن «داي كينج» استطاع أن يقنع أحد المزارعين باستخدام

سيارته الصغيرة في نقل حاجاتنا، اقتربتُ من الرجل ثم رفعت يدي قليلاً أمام صدري ولصقت كفيَّ في بعضهما البعض كما أراهم يفعلون وانحنيت قليلاً معربًا عن احترامي وشكري، وفي الحقيقة أنا أردت التحدث معه بشأن المتلازمة لعلّي أصل إلى شيء، لكننا في الحقيقة نحتاج إلى مترجم، حاولتُ التحدث باللغة العالمية، الإشارة، حاولت جاهدًا بكل طريقة ممكنة أن أشرح له ما أعنيه، حتى إن صديقَيَّ ضحكا على مظهري الذي قارب أن يكون مهرجًا، وفي النهاية وبكل أسف لم يفهم، فتناولت الأوراق من بين يدَي دكتور «هنري» الذي بدا مستمتعًا بما يحدث ثم قلت متهجّئًا الكلمات كطفل صغير: «باتي.. باتي.. باتي بات».

صرخ الرجل فجأة في وجهي، تغيرَّت ملامحه واستشاط غضبًا وبدا عليه أنه يوجّه لنا أقذع الشتائم، حتى إنه رمى حقائبنا من السيارة بكل صفاقة، وهو ما زال مستمرًا في نغمته التي لا أفهم منها شيئًا سوى أنه يسبنا ويلعن اليوم الذي رآنا فيه.

على مقربة، كانت سيدة عجوز غريبة المظهر تتابع الأمر، لها شعر مشعث شاع الشيب فيه يلتف حول رأسها في نصف دائرة، لديها احديداب يكاد لا يلحظ، عينان صغيرتان غائرتان بينما بنيتها الضئيلة والضعيف توحي بأنها لم تترك للموت شيئا ليأكله، كانت مستندة إلى كوخ صغير ويلعب حولها أطفال صغار، نظرتُ إليها طويلاً ثم اقتربت منها، فقالت بهدوء وهي تشير إلى منطقة مجهولة على الطريق الزراعي الطويل: «باتي بات».

فكررتُ جملتها وراءها: «باتي بات».

وضعت إصبع السبابة على شفتيها اللتين ضمتهما قليلاً وهي تقول هامسة: «هش.. باتي بات».

تطلعتُ إلى دكتور «هنري» الذي كان مشدوهًا بما يحدث، ثم قلت له: «ألا توجد طريقة لعينة أخرى نصل بها إلى مأربنا؟!». فابتسم ابتسامة العاجز وهز كتفيه دون رد.

نظرتُ إلى السيدة مرة أخرى وهي ما زالت مستمرة في الإشارة لي بألاَّ أذكر الكلمة كثيراً. هذا ما فهمته أخيراً ثم أشارت لنا نحو الطريق الذي لا تبدو له نهاية وعرفت في نهاية المطاف أنه لا يوجد أمامنا حلٌّ سوى أن نسير على أقدامنا تجاه المكان المجهول الذي تخبرنا به السيدة العجوز.

شكرتها بالطريقة السابقة نفسها التي شكرت بها الرجل الذي تركنا في تلك الهوة بعد أن سبنا بأقذع الشتائم الممكنة وبعد أن أصابه خوف لا نعرف كنهه تحديدًا، لكني واثق بالطبع بأنه مرتبط بـ«الباتي بات».

نظرت تجاه «داي كينج» ونحن نسير على الطريق الطويلة، فوجدته يبكي في صمت، تتساقط دموعه بألم واضح باد على ملامحه، لقد كان يرثو حاله سرًّا، اقتربتُ منه ثم قلتُ: «أرجوك يا داي لا تبكِ، فنحن الاثنين هنا من أجلك، لقد تركنا كل شيء في عالمنا من أجل أن ننقذ عالمك أنت.. على الأقل أظهر بعض الشجاعة والإرادة».

فنظر لي وابتسم ابتسامة واهنة أخرجها بصعوبة من بين طبقات متراكمة من الألم والحزن والترقب المخيف وهزَّ رأسه موافقًا ثم

مسح دموعه محاولاً كسب بعض الشجاعة، اقترب مني «هنري» ثم قال: «أنت تقوم بعمل رائع يا كمال، في الحقيقة أنا أغبط نفسي لمشاركتك مغامرة من مغامراتك».

فقلت على سبيل تسرية الوقت حتى نصل إلى تلك النقطة المجهولة التي نحن في ملاحقتها:

«دكتور هنري، أرى أنك لم تخُض مغامرات من قبلُ! هذا شيء غريب بالنسبة لي».

ابتسم ابتسامة مبتورة حزينة لكنها لم تؤثر في الكبرياء في ملامحه ثم قال: «للأسف يا كمال، أنا لم أخُض أي مغامرات في حياتي على الإطلاق، ولقد جاء عرضُك في اللحظة التي قررتُ فيها أن أغيرَّ ولو قليلاً من نمط حياتي الروتيني المعتاد، أنا رجل خمسيني كما ترى، أفنى حياته في العلوم والطب، وكما ترى أنني حتى لم أتزوج ولا يوجد لديَّ أقارب أو معارف تربطني بهم صلة حقيقية أستطيع من خلالها تمضية بعض الوقت معهم. يا كمال، إن كنت ستسألني عن رأيي فلا يوجد ما هو أقسى من الوحدة؛ فهي القاتل الحقيقي يا صديقي».

نظرت له وشعرت بشيء من الحزن ثم قلت: «آسف أني أسمع هذا منك».

هز رأسه مبتسمًا ثم قال: «كما أنك لا تعرف في أي وقت تموت».

فابتسمتُ قائلاً: «ونحن هنا في مواجهة مع الموت نفسه».

رأيته ناظرًا أمامه مبتسمًا ابتسامة عريضة، فنظرت في الاتجاه الذي ينظر إليه فوجدت على مرمى البصر من بعيد مبنى وحيدًا تحيطه مجموعة من الأكواخ الخشبية، كانت الشمس قد قاربت على الرحيل إلى عالمها الآخر، فقلت بحماس: «لنُسرع قليلاً قبل أن يباغتنا الظلام».

***

وقف ثلاثتنا في مواجهة ثلاثة بدوا لي كهنة، وقع خلفهم معبد بوذي ما زال تحت الإنشاء، يرتدون حللهم المميزة، وهي قطعة قماش واحدة ذات لون برتقالي فاقع وعلى وجوههم ابتسامة لها أسنان لامعة، كما أن الصلع في رؤوسهم بدا لي غريبًا بعض الشيء، لكنها ليست المرة الأولى التي أرى فيها معبدًا بوذيًّا، والمعابد البوذية أنواع، وهذا النوع يسمى «وات»، وهو نوع من أنواع المعابد البوذية يُشار إليه بذلك في تايلاند ولاوس وكمبوديا، وكلمة «وات» مستعارة من اللغة السنسكريتية، بمعنى «تسييج» أو «تطويق»، على العموم وبعيدًا عن المعلومات، قال أحدهم بلغتهم ما يعني مرحبًا، على ما أعتقد، أو أهلاً بكم، وانحنى قليلاً مستخدمًا نفس الحركة الاعتيادية لتحية الغرباء أو الزائرين، فانحنى ثلاثتنا ولم نرد بشيء، فقال أحدهم بلغة إنجليزية سليمة:

«مرحبًا بكم في بلدنا الصغير، نحن نرحِّب بجميع مَن يأتون إلى هنا، يبدو أنكم واجهتم صعوبات لكي تصلوا إلى هذه النقطة».

ظهرت الفرحة على ثلاثتنا وبمجرد أن حاولت التحدث قاطعني الشاب قائلاً:

«أنتم متعبون الآن، وبالتأكيد جائعون أيضًا، عليكم أولاً تقديم الشكر لبوذا والصلاة، ثم تستطيعون بعدها أن تنالوا قسطًا من النوم، ولكن كما ترون أن المعبد ما زال في مرحلة بناء، لكننا أوشكنا على الانتهاء منه؛ لذا سيكون لكم كوخ مخصص من تلك الأكواخ».

نظرنا حولنا فوجدنا بعض الأكواخ المميزة على جانبي الأرض، عددها لا يتعدَّى عشرة أكواخ متناثرة بشكل جميل وتفصل بينها مسافة تكفي للاحتفاظ بالخصوصية.

اتجه اثنان من الكهنة نحو المعبد، بينما بقي الشاب في انتظارِ أن نتحرك، وبإشارة من يده تبعناه إلى داخل المعبد، لم يكُن هناك الكثير لكي يُحكى: معبد مفروش بحصير، ولا يوجد في مواجهتنا إلا التمثال العظيم لبوذا، وضعنا حقائبنا جانبًا وخلعنا أحذيتنا، وبهدوء جلسنا كما يجلس بعض المصلين وأغمضنا أعيننا، وبمجرد أن حاولت التحدُّث إلى «هنري» الذي كان مبتسمًا لسبب لا يعلمه إلا الله، سمعت كلمة معروفة بصوت لم يفارق ذاكرتي بعد: «هش».

فنظرت حولي لأتبيَّن صاحبه فوجدتها المرأة العجوز التي دلَّتنا على المكان، بان عليَّ الاندهاش قليلاً، حتى إني وكزت «هنري» لكي يراها، ابتسم لها وأومأ لها برأسه ثم نظر أمامه وأغمض عينيه، نظرتُ لها طويلاً، لكنها في النهاية انحنت لي على سبيل إلقاء التحية ثم أغمضت عينيها واستغرقت في صلاتها.

ناوشتني الكثير من الأسئلة عن تلك المرأة، كيف وصلت إلى هذا المكان دون أن نراها والطريق الوحيدة إلى هنا كنا نسلكها ولم نرَ أحدًا طوال الطريق؟! لكننا غرباء في النهاية ويمكن أن يكون

هناك أكثر من طريق إلى هنا، على العموم كل شيء سيتضح خلال مدة وجيزة، وأعتقد أن الأمر له علاقة وثيقة بتلك المرأة.

***

جلس ثلاثتنا في الكوخ بعد أن تناولنا وجبة خفيفة لا تسمن ولا تغني من جوع. كانت الرياح تعوي في الخارج، صوتها رهيب منذر، كنت أفكر مع «هنري» في كيفية الخروج بأية معلومات عمّا نحن بصدده ولم يكُن أمامنا خيار سوى ذلك الكاهن الشاب الذي يتحدث الإنجليزية، لكني لم أرَه منذ تركنا في المعبد؛ حيث قام على خدمتنا بعد ذلك صبي صغير لا يتعدى عمره عشرة أعوام ولا يتحدث الإنجليزية بل لا يتحدث على الإطلاق، خرجتُ إلى الخارج وتركت «هنري» بصحبة «داي كينج» الذي بدأ يحس ببعض الآلام الطفيفة في صدره؛ حيث شرع أيضًا في تركيب بعض الأجهزة التي تقيس ضربات القلب وتقيس أيضًا الوظائف الحيوية للتنفُّس والقلب، اتجهتُ صوب المعبد ودققتُ النظر فلم أجد سوى بعض الكهنة الذين يتلون صلواتهم في ثبات وهدوء، لكني لم أجد بينهم الكاهن الشاب.

وفجأة، ودون سابق إنذار، وجدته في مواجهتي مبتسمًا تلك الابتسامة التي أوقفت الدم في عروقي، ابتسمتُ بريبة قائلاً: «لقد كنتُ أودُّ التحدث معك قليلاً».

بدا عليه الاهتمام، ثم أشار أن نسير معًا خارج المعبد حتى لا يثير صوتنا حفيظة المصلين في الداخل، وقفنا في الخارج وكانت الرياح شديدة بحق فاحتميت سريعًا في أحد الأكواخ بينما ظل هو

واقفًا لبرهة في الخارج ينظر إليَّ والرياح تكاد تطيِّره من مكانه، بعد وهلة دلف المكان بهدوء وبدا عليه كأنه لا يشعر بما يجري حوله فقلت له بهدوء:

«إن صديقي الشاب، داي كينج، يعاني آلامًا في صدره، أنا طبيب نفسي، والرجل الآخر برفقتنا طبيب أيضًا، متخصص في أمراض الصدر والقلب، لا أعرف كيف أقول ذلك، لكن داي يحس أن نهايته اقتربت وأنه سيموت خلال أيام قليلة، هناك شيء في معتقداتكم اسمه الباتي بات على ما أعتقد».

ابتسم ابتسامة عريضة ثم أشار لي أن أنتظر دون أن يقول كلمة، ثم خرج من الكوخ واختفى في الظلام. وقفتُ في مكاني مستغربًا ومرتابًا ممَّا يحدث، أقول له إن الرجل على وشك أن يموت ويقابلني بابتسامة، ما هذا السلام الغريب الذي يتمتع به؟! لن أقول ما هذه البلاهة؛ لأنه ليس كذلك، وأنا موقن من ذلك جدًّا، لكنه مريب، وهذا شيء أكيد.

لم يطُل الوقت حتى دلف الكوخ، بينما كنتُ جالسًا على جذع نخلة صغيرة في الأرض تمت تسويته ليصبح مكانًا مناسبًا للجلوس، فنهضتُ من مكاني، نظرت جيدًا فرأيت المرأة العجوز خلفه، دلفَتِ الكوخ ثم جلسَتْ على الأرض في مواجهتي ووقف الكاهن بيننا.

ابتسمت لي وكأنها تحثُّني على الحديث فبدأتُ في التحدث بعد تردد قائلاً:

«ماذا تعرفين عن الباتي بات؟!».

فتحدثت بلغتها وهي تشير بيديها إشارات غريبة، دققت النظر فيما تقول، بدا لي من الإشارات أنها تتحدث عن كائن عملاق مخيف، ثم قام الكاهن الشاب بالترجمة: «تقول لك إنك جئت إلى هنا بلا جدوى، إنك تبحث عن مجهول لا يمكن مطاردته، إنه أعظم ممَّا تتخيل، إنه يحيل الحياة إلى موت».

«ما ذلك الشيء؟!».. قلتُ والحماس يقتلني.

بدأتْ في الشرح لمدة طويلة؛ لذلك شرع الكاهن يترجم كل شيء تقوله أولاً بأول:

«إنها من سلاسة الهمونغ، ولقد جاءت إلى هذه البلدة منذ سنوات طويلة هربًا من الحرب؛ حيث إن أيادي الحرب لم تطل كل القرى هنا، حرب العصابات والأشرار، لقد قُتل الجميع، والدماء تناثرت في كل مكان تحت ادعاءات كاذبة لا علاقة للرب بها، لكنهم مستمرون في التدمير وإراقة الدماء، إن اللعنة ستطالهم وستقضي عليهم وعلى أبنائهم».

شرع صوتها يتغيَّر ويصبح أكثر حماسية مع وقع الرياح العاوية بصوت مخيف ومدهش في الخارج: «الباتي بات هو كائن أسطوري، يؤمن به اللاوسيون، إنه روح شريرة ونطلق عليه اسم "دا تشو.. دا تشو"».

رددتُ وراءها: «دا تشو».

فوضعتْ سبابتها على شفتيَّ لتسكتني وهي تقول: «هششش».

ثم أكملت فترجم الكاهن لي ما تقول: «إن ذلك الكائن يتشكَّل على شكل امرأة، امرأة غيور، وعندما يخلد الرجال إلى النوم

يتنكَّرون في زي امرأة ليتفادوا هذه الروح الشريرة، حيث يجلس هذا الكائن الأسطوري على صدر الضحية أو على وجهه ويخنقه ويشل حركته حتى يموت».

نظرت إلى الكاهن بريبة ثم نقلت بصري لها مرة أخرى فوجدتها تنصت إلى الرياح في الخارج، بدت ساكنة بشكل مريب على عكس العواء المخيف الذي أصدرته منذ لحظات، فقال الكاهن: «كل ما أعرفه عن هذه الظاهرة أن الهمونغ الذين لقوا حتفهم قُتلوا بسبب معتقداتهم الخاصة في العالم الروحي، والمعروف باسم هجمات روحية ملحة ليلية. في إندونيسيا يطلق عليها اسم "digeuton"، الذي يُترجَم إلى "مضغوط" باللغة الإنجليزية. في الصين يطلق عليه "bèi guǐ yā" التي تُترجم إلى "الشبح الساحق" باللغة الإنجليزية. كما يدعي الهولنديون وجود "nachtmerrie"، الفرس الليلي. تأتي "merrie" من الفرس الهولندي الأوسط، وهي عبارة عن "الجلوس على صدور الناس وخنقهم". هذه الظاهرة معروفة بين شعب همونغ في لاوس كما أخبرتك». نظرت له وأنا أحاول استيعاب ما يقولانه، ما هذا الجنون؟! وأين العلم من ذلك كله؟! للأسف العلم عاجز، لم يتوصل إلى شيء يخص تلك المسألة.

صرخت العجوز فجأة وأغمضت عينيها ورفعت يديها ورأسها إلى السماء وكأنها تستعطف الله، شرع جسدها يهتز ثم فتحت عينيها فجأة فوجدتهما بيضاوين، بيضاوين تمامًا، عدتُ إلى الخلف وقد أصابني الهلع، قالت بصوت غريب لا يشبه صوتها: «إن صديقك سيموت الليلة».

نظرتُ لها وقد تملَّك مني الخوف ودقَّ باب كل جزء في، شعرتُ بهلعٍ غريب، وفجأة تطايرت الأشياء حولنا، بينما ساعد الكاهن بصعوبة المرأة العجوز على الوقوف، اشتدت الرياح بشكل غاضب، فخرجت سريعًا من الكوخ بعد أن استفقتُ من الصدمة ومن هول ما رأيت ورأيت الكوخ بصعوبة وسط الظلام الذي يمكث فيه صديقاي وانطلقت جريًا تجاهه.

***

كان الجوُّ موحشًا، الرياح تعوي وتضرب الكوخ الذي بدا أنه على وشك التحطُّم بدوره، كان دكتور «هنري» ثابتًا بجوار «داي كينج»، يتابع حالته، لقد قام بليٌّ إبهام القدم، كما قال لي إنه يساعد القلب على العودة إلى المعدل الطبيعي للضربات، سمعتُ حفيفًا ثقيلاً في الخارج، صار الجو باردًا في بلاد لا يتحكَّم فيها البرد بهذا الشكل، انفتح الباب الخشبي فجأة بفعل الرياح التي ضربته، فانتفض جسد «داي كينج» في مكانه، لكنه لم يفتح عينيه، عمَّ الصمتُ فجأة على الكون، صوت الصمت المهيب المقلق والمحفِّز للأعصاب، ذلك الصمت الذي يظلُّ يطنُّ لثوانٍ طويلة في آذاننا حتى كدت أصرخ من وقعه، فجأة انتفض جسد «داي» وارتجف بشكل يثير العواطف الدفينة، جريتُ باتجاهه لأمدَّ يد المساعدة إلى «هنري» الذي صرخ قائلاً: «إننا نفقده.. إننا نفقده يا كمال».

نظرت إلى الجهاز الذي يوضِّح مستوى ضربات القلب بجوار الحصير الذي يستلقي عليه وهو يرتطم بالأرض ويتحطَّم في اللحظة التي حملتنا فيها الرياح وصدمتنا بأقرب مكان بجوارنا، نظر إليَّ

«هنري» حيث أصيب في يده ونزفت وعيناه متسعتان، بينما نقلت بصري تجاه «داي كينج»، لم أكُن أصدق ما أراه، لم أكُن لأصدق على الإطلاق..

بعدما ضمدتُ جراح «هنري»، وقفنا بجوار «داي كينج» المسكين، لم يكُن قد مات، لكنه ذهب في غيبوبة، أكد لي «هنري» ذلك، لكن «هنري» نفسه لم يكُن على ما يرام، بينما صوت الرياح في الخارج قد هدأ قليلاً، لم أكُن أصدِّق ما رأيت، لقد تقوَّس صدر «داي كينج» بشكل غريب، وكأن ثقلاً غريبًا غير مرئيٍّ قد وقع على صدره، أحدث زرقة غريبة، حيث تلوَّن نصفه العلوي بالكامل بلون أزرق، لقد أنقذه «هنري» بشكل أو بآخر، نعم هو في غيبوبة، لكنه لم يمُت، لم نتحدث أنا و«هنري» كثيرًا لأنه كان متعبًا وأوصاني بأن أبقى بجواره حتى الصباح ودون مقدمات ومن شدة التعب ذهب في نوم عميق، سمعت انتظام أنفاسه، فعرفت أنه نام بعد يوم طويل مخيف وموحش، فكرتُ فيما يدور، في كلام السيدة العجوز، في كل الطقوس التي أخبرتني عنها، في شكل جسد «داي كينج» الذي تغيَّر لونه إلى الأزرق، أحسست بأن هناك أمورًا تتعدى معرفتنا بكثير، هل حقيقي ما حدث ؟!، أم أن الأساطير لها ذلك التأثير على نفوسنا؟! ولكن ماذا عمَّا رأيته بأم عيني؟!

إن الأساطير ليست إلا رواية حقيقية، الغرض منها إيصال رسالةٍ ما أو تنبيهٍ ما.. لقد جاء «داي كينج» ليموت في مسقط رأسه، هذه هي الحقيقة، لقد بدا كرجل يسوقونه إلى منصة الإعدام، تلك هي الحقيقة التي أغفلتُها، لكنه، على كلٍّ حال، كان سيموت حتمًا،

سواء أجاء إلى هنا أم لم يجئ، سواء أساعدناه أم لم نساعده، لا أستطيع أن أكابر أكثر من ذلك.. نهشتني الأسئلة طوال الليل وأنا جالس بجواره أتحسس نبضه من وقت لآخر، لأتحقَّق من بقاء بصيص الحياة فيه، أو لأتحقق من خلوه من الحياة بمعنى أدق، لقد كان ما رأيتُه مؤثرًا ولن أنساه طيلة حياتي، الآن عرفتُ ما معنى أن يخنق أحدهم الآخر! أن يستولي على حياته بتلك الطريقة الجهنمية القاسية، أن ينهيها بلا شرف أو ضمير.. أيًا ما كان ما يحدث، سواء أكان أسطورة أم حقيقة، فهو شيء قاسٍ ومُهلك للنفس.

أغمضتُ عينيَّ قليلاً حيث فاجأني النعاس واستولى عليَّ، فتحت عيني بصعوبة وفجأة شعرت بقلبي ينقبض، سريعًا تحسستُ نبض «داي كينج»، لكني وجدته ما زال ينبض بالحياة، ثم ألقيت نظرة على دكتور «هنري» فوجدته ما زال نائمًا.. وقبل أن أترك الكوخ لأستنشق نسائم الصباح في هذا البلد الجميل، نظرت مرة أخرى خلفي على «هنري» بتوجُّس، لقد كان نائمًا موليًا ظهره لي، وقفتُ بجواره وناديت عليه بهدوء: «هنري».

لم يرد، فناديت عليه مرة أخرى، ولكنه لم يرد أيضًا، فهززته بهدوء وأنا أناديه، ثم سرعان ما جذبت جسده تجاهي لأرى وجهه وكانت المفاجأة، لقد كانت عيناه مبيضتين، ويبدو أنه مختنق، نعم لقد صدقت المرأة العجوز..

لقد مات صديقي.

أغلقتُ الكراسة تمامًا، شعرت بمدى سخافة الحياة ودونيتها، الأمر مقلق حقًا وعلينا ببساطة أن نتوقَّع ما لا يُتوقع، وذلك الأمر الأخير هو أمر مستحيل حدوثه على الإطلاق، أنىَّ لنا أن نبحث عن شيء لا يخطر في مخيلتنا من الأساس؟! إنك لا تبحث عن إبرة في كومة قش، في الحقيقة إننا نبحث ولكننا لا نعرف عمَّا نبحث ! تلك الرحلات الرهيبة قد تمر بمخيلة أي شخص وحينها سينعتونه بالجنون أو بالمزاح الثقيل إن كانوا لا يرغبون في خسارة صداقته وحكاياته السخيفة التي ستزورهم ليلاً في أحلامهم المظلمة القاسية، على العموم المكان كله يسبح في الظلمة والسكون المقبضين، العالم كله يسبح نحو نقطة لا متناهية من اللامعقول، ماذا يمكن أن نفعل لتفادي تلك الظلمة؟! في الحقيقة لا أعرف!

حقيقة لا أعرف!

ولكن ما أعرفه بعد تلك القصة أن كل شيء جائز، كل شيء قد يحدث بغتةً دون مخطط سابق، في الحقيقة لا توجد مخططات لأي شيء، عليك فقط ألاَّ تعترض على سير الأمور؛ لأنك ببساطة مَن تحركها مِن خلف المسرح المهيب المسمى الحياة، أحس بتعب غريب وكأني من قمت بهذه الرحلة الرهيبة، كأني مارست كل طقوسها..

لأنَلْ قسطًا من الراحة قبل أن أقرأ عن الأخوين الرهيبين..

الأخوين «براين»..

الأخوان «برايـن»

يمكنني أن أقول الكثير عمَّا سيحدث لاحقًا، ربما لا تصدق ما ستقرؤه.. لكن، وبكل صدق، إن العالم مليء بالأهوال والسفلة، آمنت بذلك أم لم تؤمن، تلك ليست المعضلة، المعضلة أن الحقيقة لا يمكن إنكارها لمجرد أن هناك بعض جُهَّال وجبناء يأبون تصديقها، ستظل صامدة وسيموتون هم في النهاية ويُدفنون مع عارهم، لا أعتقد أنك مِن هؤلاء يا صديقي! وإلا فلِمَ تكبدت تلك المشقة للوصول إلى هذه القصة من كراستي السرية؟ أوَتدري شيئًا؟! إنك أحد أهم أعمدة المصادقة على أن العالم يهوي سريعًا إلى القاع المدنَّس.

كُن معي حتى النهاية، نهايتي.. أو ربما.. نهايتك.

***

أحسستُ بصداع رهيب وتوقفتُ عن القراءة في هذه اللحظات، تلك الكلمات الأخيرة لدكتور «كمال» أصابتني بالقشعريرة، ما الذي يعنيه بأنني من أعمدة المصادقة على أن العالم يهوي؟! وما هذا الألم الرهيب الذي يدب في جسدي؟! لا أتذكر ما حدث الليلة السابقة! لقد صحوتُ في غرفتي محاولا استعادة الذكريات الأخيرة والقريبة، وما زلت لا أتذكر شيئًا ممَّا حدث في الليلة السابقة! أتذكر

أني أغلقت الكراسة بعدما مات صديقه دكتور «هنري» هناك بعيدًا في آخر الدنيا، بعدها لا أستطيع تذكُّر شيء ممَّا حدث! تأتيني ومضات غريبة ووجوه تزعق في وجهي، وجوه سوداء وبيضاء وملونة تأمرني بالهدوء! أو بالأحرى ترجوني التزام الهدوء، لقد كان الطعام ساخنًا حينما صحوت من نومي، تناولتُه على عجل شاعرًا بجوع رهيب باحثًا عن الكراسة، لقد كانت في مكانها حيث أذكر أني تركتها، البؤس على تلك الكراسة، لقد أصابتني بالهلاوس والكوابيس، أيكفي ما قرأت؟! لا أعرف..

لا.. ليس الآن..

سأكمل حتى النهاية..

***

كنت أجلس في مواجهته، لا شيء واضح في معالم وجهه يشي بأية لمحة أو علامة أو إيحاء يقودني للحقيقة، مايكل براين، أمريكي الجنسية، يبلغ من العمر 37 عامًا، فارع الطول، له ذقن حليق، أصلع، لا توجد شعرة واحدة في رأسه، عيناه واسعتان تسبحان في فضاءات بعيدة، يملك جسدًا يليق بمصارع أُسُود على الرغم ممَّا مرَّ به من أهوال في الفترة الأخيرة، يرتدي حلةَ قِسٍّ قديمة بهت لونها، وتستقر على وجهه ابتسامة عبثية لا معنى لها، يمط شفتيه بشكل غريب ويحملق فيَّ، لكنه في الحقيقة يرى أشياء لا يستطيع أحد غيره رؤيتها، الغرفة الفسيحة والنظيفة خالية من كل شيء إلا من سرير يكفي لشخص واحد ودولاب معدني في مواجهته، بينما لا توجد ثمة نوافذ أو أي وسيلة للتهوية، هناك منضدة وحيدة وأنيقة

تتوسطنا بينما يجلس على الكرسي وأنا في مواجهته على الكرسي الآخر والأخير، ولا أستطيع إغفال الكاميرات المعلقة في أركان الغرفة وتراقبنا عن كثب، لم أوجه له أي كلمة على الإطلاق لمدة ساعة كاملة، اكتفيتُ بالنظر إليه ومراقبته بدقة بينما هو لم يرفع بصره عن النقطة المواجهة له.

في الحقيقة، إنه لم يشعر بوجودي على الإطلاق..

شرعت في سؤاله: «كيف حالك يا مايكل؟!».

لم يرد في البداية، لكني أعدت سؤالي فرد وهو وما زال يحملق في النقطة أمامه:

«لا شيء على الإطلاق.. فإنه قادم لا محالة».

أخذت نفسًا عميقًا ثم سألته: «هل تتذكر ما جنته يداك؟!».

فقال وهو يقهقه فجأة: «إني أراه دائمًا في أحلامي، يخبرني بأن النهاية أوشكت بدايتها».

«من هذا الذي تراه في أحلامك يا مايكل؟!».

فنهض من مجلسه ثم استلقى على السرير ولم يرد، اتجهت بهدوء نحوه ووقفت عند قدميه ثم قلت: «لماذا قتلتهم يا مايكل؟!».

لمحت دموعه تسيل بشكل غريب، ثم شرع يرتجف، وتكوَّر على نفسه كطفل يشعر بالبرد والوحدة، أغمض عينيه وهو يتمتم: «باق عدد قليل، سيفعل ذلك، بالتأكيد سيفعل ذلك». جلست جوارَه ولم أتكلم، ولكن بعد مرور وقت قصير رأيت انتظام أنفاسه، صدره وهو يعلو ويهبط بانتظام، فعلمت أنه نام، لقد نام «مايكل» دون أن أصل إلى شيء.

خرجتُ من الغرفة ورمقته قبل أن يواريني الباب، أومأتُ برأسي لرجل الأمن الواقف لحماية «مايكل»، أو لحماية الآخرين منه، كان السجن يملك أعلى تقنية أمنية رأيتها في حياتي، بدا كقلعة عصرية لها تفردها وامتيازاتها، مكون من أربعة طوابق يمكنك رؤية طوابقه من أي مكان تقف فيه، وذلك راجع لتفرده المعماري، بمجرد أن تنظر إلى أسفل ستجد عددًا كبيرًا من رجال الأمن المسلحين والمقنَّعين مفتولي العضلات، هناك حركة منظمة بشكل دقيق في المكان، أطباء يرتدون زيهم التقليدي ويجوبون المكان في تناغم غريب، يدخلون إلى زنزانة ويخرجون من أخرى متوجهين إلى مرضاهم حسب جدولهم اليومي، كما أن السجن مجهَّز بجميع أنواع الكاميرات، الثابتة والمتحركة، التي تديرها شبكة أمنية على مستوى عالٍ من المهنية، أما الرجال ذوو المعاطف السوداء الطويلة الذين يشبهون نجوم السينما ويسيرون بثقة وخيلاء، بوقع خطوات منتظم، فهم المحققون، أطباء ومحققون في الوقت نفسه، ينتمون إلى حكومات مختلفة، إنجلترا، أمريكا، ألمانيا، فرنسا، الصين، اليابان، كوريا الشمالية، وغيرها من الدول التي لها تأثير واضح ومؤثر على العالم، الدول العظمى.

ببساطة، إن هذا السجن الاستثنائي يخضع لحماية دولية مُحكمة، وفي الحقيقة يا صديقي لا أحد يعلم عنه أي شيء، إنه بمثابة إشاعة أو وهم أو مغالاة في الوصف، أو لنقُل أسطورة لا أساس لها. إن هذا السجن بالنسبة للعامة لا وجود له من الأساس، قابع في إحدى الجزر التي تقع في المحيط الأطلسي ككائن أسطوري أنهكه الزمن، جزيرة عادية جميلة لا يمكن الوصول إليها بطريقة سهلة، كما أنه لو

صودف أن اقترب منه أي مركب أو باخرة يتم إرسال رسالة لا سلكية صارمة لها بأنها تقترب من منطقة عسكرية وأن أي محاولة للاقتراب أكثر من الجزيرة سيعرِّضها إلى الفتك دون تراجع أو تهاون ودون أن يرف لهم جفن، وذلك الأمر كفيل بأن يثير الشائعات لمحبي نظرية المؤامرة، ناهيك عن المعدات الثقيلة التي تنتشر على طول الجزيرة، طائرات ومدافع ثقيلة ودبابات وجنود لا حصر لهم ومراكز أمنية وخنادق، أنا لا أغالي في الوصف يا صديقي، للأسف، إنها الحقيقة.

فلك أن تتخيل أن المخترق الأمني العبقري «كيفين ميتنيك» يقبع هنا منذ فترة، إنه الرجل الذي تسبب في إشاعة الذعر في أوصال المجتمع الأمريكي لدرجة أن البعض وصفه بأنه «أسامة بن لادن الإنترنت» و«إرهابي الشبكة العنكبوتية»، شخص مثله قادر على أن يخترق أعلى النظم الأمنية في العالم، ولك أن تتخيل للحظة ما يمكنه فعله بمجرد اختراق الأكواد المشفرة للرؤوس النووية حول العالم، كما أنك ربما ترى «دونفان»، الملقب بـ«الماكينة»، وبالتأكيد إن ذلك الاسم يعطيك انطباعًا بأنه ماكينة قتل أو سرقة، ولكنه في الحقيقة ماكينة تزوير فائقة الدقة؛ فقد استطاع تزوير كل العملات والتلاعب بها داخل البورصات العالمية وكانت له يد في الانهيار الاقتصادي الأخير حول العالم؛ لذلك فالسجناء هنا مميزون، لا يمكن قتلهم جرَّاء هذه التهم؛ فتلك تهم لا تؤدي للمشنقة، لكن عبقريتهم متفرِّدة تجعل منهم نجومًا لامعين، ولكن للأسف لا يمكنهم الظهور أو التلاعب بمجريات العالم؛ لذلك قررت تلك الحكومات التخلُّص منهم بهذه الطريقة، وفي الوقت

نفسه دراستهم عن كثب لمعرفة الأسرار الدفينة حول ذلك التفرد العجيب وإن شئت الدقة استغلالهم أيضا إن استطاعوا.

بالتأكيد أنت تتساءل عن سبب وجودي من الأساس في هذا المكان، وأنىَّ لشخص مثلي بعيد كل البعد عن هذه الدائرة أن يوجد في هذه الجزيرة الأسطورية والتي تنتشر حولها الشائعات الثقيلة الصاخبة والغامضة بمثل هذه البساطة؟! شخص ينتمي لبلدة نامية في قارة فقيرة! يجوب أهم الأماكن الأمنية في العالم، التي تستوعب أهم وأخطر المجرمين في وقتنا المعاصر، الأمر يكاد يكون جنونيًا، أليس كذلك؟!

هل تذكر «تشارلز كافنديش»؟ إنه ذلك المحقق الغريب، الإنجليزي حتى النخاع، هو السبب والأداة لوجودي هنا، لقد تلقيتُ مكالمة تليفونية منه هو شخصيًا وأنا قابع في منزلي أبحث عمًا يحرك عقلي، أي قضية، أي مجنون أو طائش، ينتشلني من الفراغ الذي أشعر به، لا قضية تستحق ولا مريض يجذب انتباهي، كلها قضايا باهتة ومكررة ومرضى لا جديد فيهم، المرأة التي قتلت زوجها بدافع الغيرة، والرجل الذي قتل أولاده لأنه خسر في البورصة بعد أن أصابته لوثة ثم قام بقتل نفسه، والسيدة العجوز التي حرقت عمارتها بالكامل لتثبت أن نار الله على الأرض أيضًا، والشاب الذي فجَّر نفسه باسم العدالة والدين، كلها أخبار تافهة ولا تسترعي انتباهي على الإطلاق، لكن مكالمة من رجل كـ«كافنديش» جعلتني متأكدًا أنني أمام وجبة شهية بعد جوع طويل كاد يقضي عليَّ.

* * *

وقف في مواجهتي، وبنبرة هادئة وجدِّيَّة لا تخلو من ودٍّ قال: «أنا سعيد أنك هنا يا دكتور كمال».

ابتسمت ابتسامة عريضة وأنا أقول: «وأنا أيضًا يا سيد كافنديش، مسرور بوجودي هنا مرة أخرى».

قال وهو يسير وقد أخرج غليونه الأنيق المميَّز ثم أشعله: «أنا أحترم الرجال أمثالك، لا يضيِّعون وقتًا أمام النداءات من أجل المساعدة».

فقلتُ مبتسمًا باستغراب: «ولكن السيد كافنديش لا يحتاج إلى مساعدة على حد علمي، حتى في القضية التي تشاركنا حلها، أنت كنت تعرف جوانبها وتستطيع حلها ببساطة إن أردت».

فابتسم وهو ينفث الدخان ثم قال: «أحيانًا نحتاج إلى أن نرى أنفسنا في شخص آخر، ربما احتجنا إليه لاحقًا. صدقني يا دكتور كمال، إن النفس هي أعظم وأغمض سر في الوجود كله، تلك حقيقة أعيشها الآن».

لم أفهم ما يرمي إليه، لكنه قال بعد توقُّف لم يطُل: «دكتور كمال، هل سمعت من قبل عن متلازمة غانسر؟».

أجبتُ على الفور قائلاً بشيء من الاستغراب: «لم أسمع عنها! إن أي طبيب نفسي يعرف متلازمة غانسر جيدًا، إنها متلازمة قديمة».

«وماذا تعرف أنت عنها؟!».

صمتُّ قليلاً محاولاً استنباط شيء من وراء السؤال، لكني لم أصل إلى شيء فقلت مسترسلاً:

«يُعزى اكتشاف متلازمة غانسر إلى سيبرت جوزيف ماريا غانسر عام 1898، وقد سُميت بهذا الاسم تيمنًا به، اضطراب عقلي يُصاب به السجناء خاصة والمعرَّضون للمحاكمة، وسُمِّيت حينها الوعي الضعيف والتشوه المشوه، وفي الأدب يطلق عليها "Forbidden"، وهي عدم استطاعة الرد على الأسئلة على الرغم من وضوح الأخيرة، أو بمعنى أدق أنهم قد يسعون إلى تقريب الإجابة، والحقيقة أن هناك ثلاثة أنواع من المرضى الذين ينتمون لتلك المتلازمة، أخطرها النوع الذي يتعرض له السجناء الذين ينتظرون حكمًا كما قلت سابقًا؛ لأن إجاباتهم تكون أبعد ما يكون عن السؤال؛ فمثلاً إذا قلت 1 + 1 سيجيب المريض في الحالة العادية بالرقم 3 أو أي رقم آخر، ومعنى ذلك أنه يفهم السؤال ولكنه لا يستطيع الإجابة عنه، لكننا أيضًا أمام إجابة تقريبية، وتلك الحالة سهل معالجتها، أما في الحالات الخطرة فإن الإجابات لا تكون لها علاقة بالسؤال على الإطلاق».

أشار بيده أن أتوقف قائلاً: «يكفي هذا». ثم ابتسم ابتسامة باهتة مفكرًا، نظرت إليه مستطلعًا ثم قلتُ بهدوء: «أرجوك سيد كافنديش، لا تقُل لي إنك جئت بي إلى هنا من أجل متلازمة غانسر، لا يمكن أن أكون قد قطعت كل تلك المسافة من أجل متلازمة يستطيع أضعف طبيب نفسي تشخيصها ومعالجتها ببساطة».

«هل تناولت غداءك؟!»، تساءل بشكل عادي وكأنه لم يسمعني.

فقلت متلعثمًا ومستغربًا: «غدائي!».

فقال وهو يتحرك نافثا الدخان: «هيا بنا إلى أقرب مطعم، وهناك يمكننا أن نتحدث».

أوقفنا سيارة أجرة واتجهنا نحو وسط لندن.

***

جلسنا في مواجهة بعضنا البعض على منضدة داخل مطعم أرستقراطي أنيق يصدح بموسيقى كلاسيكية قديمة، أعتقد أنها مقطوعة من مقطوعات «شوبان»، بدا على «كافنديش» الاستمتاع وهو ينفث سحابات من الدخان، كان كل طاقم الخدمة في المكان يعرفه جيدًا، سعدوا بوجوده ولم يقدموا لنا حتى قائمة الطعام، لكنهم بأدب إنجليزي واضح أكدوا له أن الطعام سيكون جاهزًا خلال 20 دقيقة، وُضعت أمامنا زجاجة جين عتيقة فتحها النادل بهدوء ثم صبَّ شيئًا منها في كأس «كافنديش» الذي قام بشمها باستمتاع ورشف منها رشفة ثم أومأ له راضيًا وأمره بالمتابعة، فقام الساقي بصب الجين في كأسه ومن ثَمَّ في كأسي، نظرت حولي مستطلعًا المكان المعتم تقريبًا إلا من أضواء خافتة جميلة تبث الراحة في النفس، فوجدت أن جميع المناضد خالية، من الواضح أن «كافنديش» لمح التساؤل في عيني فقال: «لن يأتي أحد إلى هنا يا دكتور كمال، نحن هنا نملك أعلى درجات الخصوصية مع موسيقى شوبان وكأس جين تدفئ أجسادنا وطعام شهي يرمم أجسادنا ويفعِّل عقولنا التي نحتاج إليها كثيراً في هذا التوقيت».

استغربتُ قليلاً، لكني في الحقيقة لم أكُن مندهشًا إلى تلك الدرجة؛ لأن «كافنديش»، كما رأيت فيه منذ أول لقاء لنا، رجل استثنائي، لديه قدرات خاصة لم أكتشفها بعدُ، لكني أحسها، كما أني، حتى هذه اللحظة، لا أعرف طبيعة مهنته بالضبط، هل هو

عميل للحكومة الإنجليزية! محقق رفيع الشأن في شرطة سكوتلانديارد! رجل يكسب ثقة القصر الملكي! أم أنه كل هؤلاء؟! لا أعرف، لكنه حتمًا مكسب لي، لا جدال في ذلك.

أخذ جرعة من كأسه ثم ترك غليونه جانبًا ونظر لي لوهلة، وبدا أنه يفكر، ثم قال: «لقد وقعت حوادث غريبة في الفترة الأخيرة يا دكتور كمال، كل تلك الحوادث تقودنا إلى أكثر من خيط، هناك جماعات كما تعلم تدير العالم في الظلام، جماعات بطبيعة الحال نعرف نشاطها وجماعات عفى عليها الزمن ولم يعُد لها تأثير على الساحة العالمية، لكن هناك جماعات قديمة قدم الزمن نفسه، قد نعتقد أنها انهارت، ولكن أنت تعرف البشر، هم معقَّدون للغاية، وقد ترى بينهم من يتبنَّى نظرية قديمة ويسعى إلى إحيائها مرة أخرى بأي طريقة ممكنة..

بالتأكيد قرأت عن جماعات سرية كثيرة، سواء معاصرة أو قديمة، أنا أدرك أنك رجل مثقف وتسعى دائمًا إلى الاكتشاف ولن تتوانى عن مساعدة البشرية في أي أمر مهما بلغت خطورته؛ لذلك لم أتوانَ عن استدعائك وطلب نصيحتك في هذا الأمر، ولن أخفي عليك أني طلبت بشكل رسمي أن تكون جزءًا من هذه القضية على مسؤوليتي الشخصية، كان يمكنني أن أعمل مع أي طبيب محقق آخر من داخل جماعتنا، لكني أريد أن أخوض تلك القضية على طريقتك، أنا على علم بجميع الطرق التي يستخدمها الزملاء في العمل، لكني في هذه القضية أحتاج إلى دم جديد يسلك طرقًا

غير تقليدية في البحث. دون أن أطيل عليك، هل أنت موافق في مشاركتي مغامرة جديدة؟!».

ابتسمت ثم قلت دون تفكير: «بكل تأكيد يا سيد كافنديش، هذا من دواعي سروري».

ابتسم ثم قال مسترسلاً وقد بدت على وجهه جدية مفاجئة:

«إذن ها هو الموضوع، لقد حدثت أكثر من جريمة قتل في الآونة الأخيرة وكلها مرتبطة ببعضها البعض، الجرائم حدثت لمجموعة من السود والملونين، ولوهلة ستشعر بأن الأمر مرتبط بالتفرقة العنصرية، لكن الجرائم جميعها تم ارتكابها في دول متفرقة: إسبانيا، ألمانيا، إيطاليا، إنجلترا، البرتغال، فرنسا، وغيرها من الدول الأوروبية.. الأكثر غرابة في الأمر، أن كل الضحايا التي وجدناها كانت موشومة بالصليب على صدرها ومصلوبة، منهم من كان مصلوبًا في شقته، وآخر مصلوب على جدار في الشارع بعد أن تم تسميره بوحشية، ومنهم من تم صلبه على شجرة، وفي كل مرة نجد الصليب محروقًا أيضًا»، ثم أخرج من داخل معطفه ظرفًا صغيرًا وألقاه أمامي، فتحت الظرف فواجهت صورًا كثيرة لمواقع جرائم مختلفة وضحايا قُتلوا بوحشية بيد مهووسة وقلب لا يرحم، فسمعته يقول:

«لقد كانت طريقة القتل وحشية كما ترى، كما أن القاتل قام بوضع إكليل الشوك فوق رؤوس الضحايا، كما أنك تستطيع رؤية رسالة من كلمتين، كُتبت على صدور الضحايا: "المسيح سيعود"، الرسالة موجزة كما ترى، لكنها تقودنا إلى خيوط كثيرة ومتشعبة».

«هل هناك ربط بين الضحايا؟!».

ابتسم ثم قال: «أنت الآن تثبت لي أني كنت على حق حينما استدعيتك، نعم يا دكتور كمال، هناك ربط واضح بينهم، جميع الضحايا يهود، وبعد التقصي عن الضحايا ومعرفة أصولهم والتحرِّي عن عملهم وهواياتهم وميولهم الجنسية وكل تلك الأمور، اتضح لنا أنهم جميعًا قاموا بزيارة القدس خلال السنوات الخمسة الأخيرة. في الحقيقة، إنهم جميعًا مكثوا هناك مدة لا تقل عن أسبوعين، لقد زاروا أورشليم، المدينة المقدسة، وفي الحقيقة لا شيء آخر يجمعهم، الضحايا من جنسيات مختلفة: أمريكان أفارقة، وإنجليز مجنَّسون، وألمان مجنَّسون، وآسيويون أيضًا.. المهم أن الجرائم تتم بدقة كما أخبرتُك ودون ترك أي دليل يقود إلى مرتكبيها، لا شيء سوى وشم الصليب والرسالة».

فكرتُ قليلاً ثم قلتُ: «لا أعتقد أن الأمر مرتبط بقاتل متسلسل مهووس بالسيد المسيح، أو شخص متعصب شديد التدين، لا أريد أن أعطي الأمور أكبر من حجمها، لكني أعتقد أن الأمر أكبر من ذلك بكثير».

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال بنبرة أقرب إلى الهمس: «نعم، أنت على حق؛ لأن آخر الضحايا أحد أبناء الأسرة الملكية لدولة ما، لا أستطيع إخبارك بتلك التفصيلة الآن؛ لأنها خارج نطاق سلطاتي، لكني أؤكد لك أنك ستندهش حين تعرف باقي التفاصيل».

جاء النادل ومعه الطعام فابتسم «كافنديش» قائلاً: «والآن تناول وجبتك يا صديقي، نحن في أمسِّ الحاجة إليها».

* * *

«لقد عثرنا على مايكل براين بهذه الحالة كما ترى، لم نستطِع الوصول إلى أي إجابة ممكنة منه، وكما هو واضح فإنه مصاب بمتلازمة غانسر وفي مرحلة صعبة وخطرة أيضًا وعلاجه يحتاج إلى وقت طويل». أخذ نفسًا عميقًا ثم أخرج صورة أخرى من جيب معطفه وناولني إياها، نظرتُ إلى الصورة فوجدت مايكل براين يقف بجوار شخص آخر وقد تم بتر وجهه من الصورة بشكل دائري ولم يتبقَّ من رأسه سوى شعره الطويل المتدلي على كتفيه، فسمعت «كافنديش» يقول: «كما ترى يا دكتور كمال، الوجه الآخر مبتور، إنها لأخيه الذي لا يوجد له سجل في أي دولة على الإطلاق، وبالطبع ستسألني كيف عرفنا من الأساس عن الأخوين براين!».

تطلعت له ثم قلت: «أعتقد أن براين الآخر هو السر في حل اللغز».

أومأ «كافنديش» برأسه ثم قال: «إن مايكل براين الذي زرته كان مصابًا بالذهان حين كان صغيرًا؛ حيث كان يُعامَل معاملة قاسية من قِبَل والديه، ومن الواضح أن الأخ الآخر كان مناصره والمدافع عنه في الحياة، الغريب في الأمر أن جيران الأخوين أكدوا لنا أن إدوارد براين (الأخ)، وهذا كل ما حصلنا عليه حتى هذه اللحظة، قد مات غرقًا في سن السادسة عشرة بينما كان يعمل صيادًا على إحدى السفن الأمريكية التي كانت متجهة إلى إسبانيا، وقد قام القبطان في هذا الوقت بتسجيله ضمن قائمة المفقودين؛ لأنهم بكل تأكيد لم يعثروا على جثته، ومنذ ذلك الوقت طُويت صفحة إدوارد براين إلى الأبد».

«لكن الصورة أمامي تؤكد أن مايكل براين تجاوز العشرينات أو ربما في بداية الثلاثينات إن لم أكن مخطئًا».

أومأ «كافنديش» ثم قال: «بالضبط، وقد قام خبراؤنا بتحليل الصورة التي أكدت أنها التُقطت ما بين عامي 1995 و1997، أي منذ سبع سنوات فقط، إن مايكل براين يبلغ من العمر الآن 37 عامًا، ولك هذه الملاحظة المهمة، إن مايكل وبراين توأمان وليسا مجرد أخوين».

دُهشت وعمل عقلي سريعًا، لكنه قاطعني قائلاً: «إن مايكل وإدوارد براين لم يتم تسجيلهما في السجلات الحكومية إلا بعد فترة طويلة من ولادتهما، وهذا ما تأكدنا منه لاحقًا؛ فقد عمدت والدتهما المجرية، التي ماتت منذ سنوات طويلة، لذلك، ووحده الله الذي يعلم السبب الذي أضمرته في نفسها؛ حيث ولدتهما في المنزل دون أي رعاية طبية تُذكر، بينما كان الأب غائبًا في العمل على أحد مراكب الصيد في أثناء ولادتهما، كما أننا نكثّف جهودنا للوصول إليه، حيث اختفى الرجل منذ سنة تقريبًا دون أي مقدمات.

على العموم، لقد سُجّلا متأخرين في المدارس، وفي الحقيقة أنهما لم يوليا المدرسة أي اهتمام، بل قام الأب بإلحاقهما مبكرًا بمهنة الصيد؛ حيث كانوا يعيشون جميعًا في مدينة صغيرة تابعة لفيرجينيا، دعك من أن الأب صاحب سوابق إجرامية في عالم السرقة والنصب، كما أنه أُدين أكثر من مرة بالتهرُّب الضريبي.. إنه، بكل بساطة، مجرم، ولك أن تتخيّل مصير الطفلين في ظل هذه الظروف.

أنت تدرك، يا دكتور كمال، أن متلازمة غانسر في الحالات شديدة الخطورة يكون المريض فيها قد تعرَّض لإذلال واضح أو كبت رهيب، ولْنَقُلْ إن هذه هي نوعية الإجهاد الشديد التي تعرَّض لها مايكل والتي أعقبها فقدان في الذاكرة لبعض التفاصيل، ومن هنا يأتي الذهان».

توقَّف قليلاً عن الكلام تاركًا لي مساحة من التأمل والاستيعاب، ثم قال وقد نهض من خلف مكتبه ثم جلس في مواجهتي على الكرسي المواجه لي: «لقد عرَّضْنا مايكل لكل الطرق الممكنة التي يمكن لك أن تتخيلها من الاستجواب يا دكتور كمال، أؤكد لك أن تلك هي الحقيقة ولا تنظر لي بتلك الطريقة؛ فأنت رجل عاقل قبل أن تكون طبيبًا محترفًا ومحققًا خاصًّا في الوقت نفسه، نحن بصدد قضية مهمة وخطرة، وكما رأيت بنفسك فإننا لم نصل إلى نتيجة مع مايكل، لم نحصل إلا على جمل غريبة من شخص لا طائل منه، ولكن بكل أسف هو الخيط الوحيد الذي نملكه في هذه القضية».

تساءلتُ بعد صمت وأنا أدخن سيجارة: «أريد أن أرى منزل مايكل، كما أريد أن أطلع على الأدلة وطبيعة القضية منذ بدأت، حتى يمكنني التأكد من أننا نسير على الطريق الصحيحة».

ابتسم «كافنديش» راضيًا وقد نفث سحابة من الدخان: «لك ذلك يا عزيزي، لك ذلك».

* * *

فوضى عارمة، البؤس يسيطر على المكان، كلمات غير مفهومة مكتوبة على جميع الحوائط وكأنها وشوم منتشرة على جسد كالح هزيل، كانت هناك كثير من الصور الملقاة على الأرض، لمحت صورة تجمع العائلة بينما كان التوأمان ما زالا في مرحلة البلوغ، جثوت على ركبتي وشرعت في تدقيق النظر، لقد كان الوالدان ضخمَي الجثة بحق؛ لذلك فلا أستغرب الهيئة الجثمانية للأخوين، حتى إن «إدوارد»، الأخ الغامض، يبدو أكثر طولاً وضخامة بقليل من «مايكل»، لفت انتباهي شيء غريب في الصورة معلق في ركن خلفي بعيد، كأنه شبح يطل على الصورة، يرتدي ذلك القناع السخيف الذي غالبًا ما تصوره الأفلام، قناع أبيض له تجويفان عند منطقة العينين. نظرت إلى «كافنديش» مفكرًا ومطبقًا على الصورة ثم اتجهت نحوه، حيث كانت عيناه ترصدان المكان ككاميرا دقيقة تفتّش عن أي شيء ضائع لم يلاحظه المفتشون.

لم يبدُ عليه الإجهاد، على الرغم من المسافة التي قطعناها من لندن إلى ولاية فيرجينيا. في الحقيقة، لم تكُن الرحلة مرهقة كما تتصور؛ فقد جئنا إلى هنا بطائرة لم أرَ مثلها من قبلُ في حياتي، تشبه سفن الفضاء إلى حدٍّ كبير، لكنها مشطوفة من الأمام ولها جناحان في الثلث الأخير منها، جناحان صغيران، ولا يوجد بها أي نتوءات، طائرة عرفتُ من «كافنديش» أنها تابعة للحكومة الإنجليزية ومن أجل خدمة إنجلترا، تحدَّث الرجل عنها بإجلال وعلياء لا مثيل لهما وله كل الحق في أن يفتخر بتلك الآلة؛ فنحن ما زلنا في مصر نبحث عن طريقة أفضل لطهي الفول المدمس، لعلَّك تفهم ما أعنيه!

وصلنا في زمن قياسي مقارنةً بأي وسيلة أخرى، كما أن وسائل الراحة كانت متوافرة داخل الطائرة التي تشبه من الداخل فندقًا لا يوجد إلا في الأحلام.

نظر إلى الصورة متأملا، على المكان الذي أشرت إليه، فتطلَّع لي مبتسمًا ابتسامة باهتة ثم أخذها من يدي ودسها في جيبه، خرجنا من المنزل ثم اتجهنا مباشرةً إلى الطائرة لتبدأ رحلة العودة، أنت لا تتخيل مدى الحماس والفرحة اللذين شعرت بهما خلال تلك المهمة، من إنجلترا إلى أمريكا، ومن قبلُ كنت على جزيرة لا يطؤها سوى المختارين فقط، ما أجمل أن تترك نفسك للمغامرة لتجعلها تعيش فيك.

***

في المشرحة، وقفتُ أمام الجثث المستلقية بشكل أبدي، كانت متراصَّة في شكل مهيب وكأنها مراسم دفن أُعدَّت بعد انتهاء معركة حربية قديمة، وقف «كافنديش» مستندًا إلى حائط يراقبني عن كثب، بينما أتمعَّن التدقيق في كل جثة على حدة. في الحقيقة، إنهم لم يزيلوا أي أثر أو دليل من على الجثث، ما زالت بالمنظر نفسه الذي وجدوها عليه، كانت الرسالة واضحة ومكتوبة بشكل رهيب ومتوحش لا تخطئه عين على صدر كل ضحية: «المسيح سيعود»، هل هي طائفة عرقية تسعى إلى شيء ما من خلف تلك الجرائم، أم أنها جماعة دينية مهووسة ارتكبت تلك الجرائم مُتصَوِّرة وطبقا لاعتقاداتها أن تقديم الأضحيات يعجِّل من عودة السيد المسيح، أم أنها جماعة سرية تعلن عن نفسها بعد سنين طوال من

السرية والتخطيط والعمل الجاد حتى جاء الوقت لتنفيذ نبوءتهم الخاصة، أم أن الأمر أعقد من ذلك وربما أبسط من ذلك؟! فالدليل الوحيد الذي نملكه شخص مصاب بالذهان وبمتلازمة في مراحلها المتأخرة والخطرة، وكما هو واضح فإن أي تأخير سيتسبب في ارتكاب المزيد من الجرائم الوحشية إن لم نوقفهم في أسرع وقت ممكن.

نظرت بطرف عيني إلى السرير الأخير الذي كان بعيدًا نسبيًا عن الأسرَّة الأخرى بشيء من التشكك والذهول، كانت الضحية مغطّاة بملاءة جميلة مُذَهَّب أطرافها، على عكس الضحايا الأخرى، بمجرد أن تقدمت نحوها، أجفل «كافنديش» ووقف متحفزًا للحظة، ثم مشى بسرعة بخطوات ذات وقعٍ عنيف متوتر، وقع مَن أقدم على شيء ووقف أمام الضحية، وإن صدق ظني فقد وقف عند الرأس، ثم رسم ابتسامة قلقة متوترة، فقلت بعد هنيهة وأنا أرمقه متسائلاً: «العرق الملكي؟! أقصد الضحية الملكية؟!».

أومأ برأسه حزينًا دون أن يضيف شيئًا، فقلت: «هل لي...؟!»، وأشرت بما يعني أن أفحصه، مطَّ شفتيه ثم زمَّهما وكأنه يداري توترًا كبيرًا وحزنًا عميقًا ثم هزَّ رأسه عدة مرات عاكسًا مدى المسؤولية والألم اللذين يحس بهما.

رفعتُ الغطاء عن الضحية، يالللهول، ماذا أرى؟! إنها صبية صغيرة لا يتعدى عمرها 11 عامًا، فُصل رأسها عن جسدها، وقد وُضع على الرأس الجميل المقطوع إكليل الشوك، وقد تم صلبها أيضًا، ذلك واضح من الآثار الدامية على معصميها، بينما رُسمت

نفس الرسالة على صدرها بالدماء، أي حيوان يمكنه العبث بهذه الطريقة المتوحشة ببراءة لا ذنب لها سوى أنها وُجدت في عالم مهووس كعالمنا؟! أخذتُ نفسًا عميقًا وأنا أكتم الحزن والغضب في صدري، ودققت النظر في كل جزء فيها، آثار تعذيب واضحة، لكنها لم تستمر طويلاً؛ لأن غياب شخصية ملكية سيجلب التساؤل، لا يوجد أي دليل على الهتك أو محاولة العبث الشيطانية بالأطفال، نظرت إلى أصابعها الملائكية فوجدت خاتمًا في إصبعها الوسطى ليدها اليمنى، الخاتم الملكي، لكنه لم يبد لي خاتمًا يجذب النظر كثيرًا، في الحقيقة لا يليق بابنة ملك، لا يليق بوريثة عرش.. جثوتُ على ركبتي بعد أن تناولتُ قفازًا من «كافنديش» وفحصته لمدة طويلة، حتى إن «كافنديش» جثا على ركبتيه وظل بجواري يراقب ما أفعل، وقد أحس أني وجدت شيئًا مهمًا.

خلعتُ الخاتم من يد الضحية بهدوء ثم غطيتها وقرأت سورة الفاتحة وقد سالت الدموع دون أن أدري، أنت تعرفني جيدًا، لا أبكي أبدًا، ربما هي ميزة لا يتمنّى أي شخص على وجه الأرض أن يتمتّع بها، إنها صفة لا يتمتع بها سوى الذين لا يملكون شيئًا كي يخسروه، ومن لا يملك شيئًا لا يملك حياة. صدقني، هذه هي الحقيقة.

نظرت إلى «كافنديش» وأنا أضع الخاتم على كف يدي ثم قلت: «هل تعرّف إليها والداها؟!».

«سؤال سخيف يا دكتور كمال».. أجاب «كافنديش» باستغراب مشوب بسخرية.

«أجبني من فضلك سيد كافنديش».

فقال بحزن وبدا أنه يستعيد الذكريات: «نعم، لقد تعرَّفا إليها».

«هل فحصتم هذا الخاتم؟!» وأشهرته في وجهه.

«إنه الخاتم الملكي كما تعلم».

«لا يا سيد كافنديش، إنه ليس كذلك على الإطلاق، ليس خاتمًا ملكيًّا، إنه محاولة رديئة لتقليده، هذا الخاتم رسالة لم ينتبه إليها أحد، وأعتقد أن فداحة مظهر الضحية وأهميتها الملكية جعلتكم لا ترون جيدًا، حتى أنت يا سيد كافنديش، ترفض أن يقترب أحد أو يدقق النظر في هذا الملاك الراحل، إنه حقك ولا ألومك».

***

كنا نجلس في بهو الفندق صامتين نفكر ونرسم السيناريوهات المحتملة والنتائج المتوقعة، لقد تمت عملية فحص الخاتم بالكامل من قِبَل المختصين، الخاتم تعود جذوره إلى عام 1920، عليه بعض آثار لدماء قديمة تعود إلى سنوات خلت، كما توجد أيضًا آثار لدماء الضحية الأخيرة. على العموم، قام «كافنديش» بتحويل الخاتم إلى المختصين في هذا الأمر ليبحثوا خلفه وعن حقيقته وعن مالكه الأول إن أمكن الأمر؛ فالخاتم مميَّز للغاية، يشبه الخواتم الملكية بالكاد، محفور عليه بلاتينية قديمة من الداخل: «الدماء للغرباء»، بينما نُقش عليه من أعلى صورة لفارس غاضب، مُشْهرًا سيفه يمتطي حصانًا جميع أقدامه على الأرض، على الرغم من أن الغضب بادٍ عليه هو الآخر.

في أثناء تناولنا القهوة، في ثاني يوم في ردهة الفندق الذي حجز لي فيه «كافنديش»، نظرت إليه ممعنًا التفكير ثم قلت: «سيد كافنديش، هناك سؤال مهم وسط كل ذلك، ولقد أجَّلتُه حقيقةً حتى هذه اللحظة».

أومأ لي برأسه كي أستمر فقلت متسائلاً: «لماذا تشكون بأن إدوارد، ذلك الرجل الذي لا تعرفون عنه شيئًا سوى أنه جثة ميتة في قعر محيط، قد قام بارتكاب كل هذه الحوادث؟! ما الذي يؤكد لكم ذلك؟!».

ابتسم «كافنديش» ثم قال: «لقد اعترف مايكل، قبل أن يدخل في هذه الحالة منذ فترة طويلة، بأن أخاه لم يمُت، وكذلك اعترف لنا بأن إدوارد هو من يقوم بمثل كل هذه الجرائم البشعة!».

«عذرًا!».. قلت مستغربًا.

ابتسم «كافنديش» وولىَّ القهوة جانبًا ثم قال: «دكتور كمال، هل تشكك في الشاهد الوحيد على كل ما يحدث؟!».

نظرت في عينيه متأملاً ثم قلت: «شاهد كان مصابًا بالذهان، كما أنه مصاب الآن بمتلازمة غانسر يقبع في أكثر السجون سرية، تربىَّ في بيئة غير سوية وترعرع على أفكار السرقة والنصب والقتل أيضًا، له أخ تشكون بأنه ارتكب مذبحة انتهت بقتل ابنة ملك وما زال يلهو في الخارج، والأدهى أن علاقته بمايكل المسكين طيبة، غريب! ما الذي يدعوني إلى التشكيك في شاهد كهذا؟!».

ضحك «كافنديش» ضحكة مجلجلة وأطاح بالوقار بضربة

واحدة ثم اقترب مني والابتسامة تزيل وجهه: «دكتور كمال، أنا مستمتع حقًا بقضاء الوقت معك».

***

جلست بجواره داخل قاعة سينما متوسطة الحجم وخالية تمامًا، قاعة ملكية إن أمكنني القول، كراسي فاخرة، مريحة ونظيفة مغطاة بالقطيفة الحمراء، توجد كاميرات رصد معلقة تقريبًا في كل مكان في الصالة، كما أن المساحات الضيقة ما بين الكراسي مصقولة بسجاد إيراني ثقيل تغوص فيه الأقدام، بينما هناك ثريًا عملاقة مهيبة في وسط السقف تتدلى فوق رؤوسنا، حتى لتشعر لوهلة بأنها تلامس رأسك، ابتسم «كافنديش» وهو يلاحظ إعجابي ثم قال: «تفضل بالجلوس يا دكتور كمال».

جلستُ دون أن أرفع عيني عن الثريا فسمعته يقول: «هذه إحدى دور السينما التي لا يعرف عنها أي شخص شيئًا». ثم جلس بجواري ولم يحرك ساكنًا فتلفتُّ حولي منتظرًا أي شخص أو علامة، وفجأة رفع «كافنديش» يده بملل وفرقع بأصابعه فانطفأت أضواء الصالة تمامًا وعرضت الشاشة العملاقة صورة مشوشة في البداية لرجل عملاق يرتدي زي قسٍّ يجلس مقيدًا وحوله مجموعة كبيرة من الرجال ذوي المعاطف البيضاء والسوداء الذين رأيتهم على الجزيرة الغامضة، فتسمَّرت عيناي على الشاشة ثم التفتُّ نحو «كافنديش» الذي كان ينظر بثبات وتركيز نحو الشاشة فنقلت بصري مرة أخرى على ما يعرضه هذا الفيلم الاستثنائي.

سمعت أحد الأطباء يقول: «لماذا جئت إلينا يا مايكل؟!».

ساد صمت ثقيل ثم قال بعد وهلة بصوت يشي بالإعياء: «جئت لأني أشعر بالعار».

قال أحدهم بنبرة حازمة: «أي عار؟! حدد كلامك».

رفع «مايكل» رأسه تجاه الصوت واقتربت الكاميرا على ملامحه، أخذتُ نفسًا عميقًا وأنا أراقب عن كثب كل حركة فسمعته يقول: «لقد ظهر إدوارد، لكنه طلب مني ألَّا أخبر أي شخص عن عودته».

«من إدوارد؟!».

«أخي الغريق».

«لكنه غريق كما تقول!».. قال محقق آخر.

«لقد تم إنقاذه بطريقة ما، بطريقة لا أعرفها ولم يخبرني بها».

«ولماذا طلب منك ألَّا تخبر أحدًا؟!».

«لا أعرف».

«وماذا طلب منك؟!».

«أن أساعده».

«تساعده في ماذا؟!».

«في عودة المسيح».

ساد صمت عميق فقال أحد المحققين: «وكيف سيعود المسيح؟!».

تطلع إليه «مايكل» وقد بدا عليه الأسى العميق، ثم قال مترددًا وبنبرة مهزوزة: «بقتل كلِّ مَن خانوا المسيح».

سادت همهمة لم تطُل فقال أحدهم: «وكيف سيقتل إدوارد من خانوا المسيح؟ ومن هم؟!».

فقال «مايكل»: «لقد قتل 8 أشخاص حتى هذه اللحظة ولا أعرف كم شخصًا متبقيًا كي يقتله، صدقوني، أنا لا أعرف أكثر من ذلك، ولقد جئتُ بمحض إرادتي لأعترف».

«وكيف ساعدته يا مايكل؟!».

«كان يصطحبني معه كي أؤمِّن له الطرقات وأساعده في تنفيذ الخطط، لكنني تعبتُ من رؤية الدماء، يئست ممَّا يفعله، وفي آخر مرة واجهته ضربني حتى كاد يقتلني».

توقف هنيهة وقد بدا أنه ينْشُج ثم قال: «المسيح سيعود، أليس كذلك؟! أنا لم أُرِق الدماء هباءً، قولوا لي إنه سيعود وسأرتاح».

توقفت الشاشة بمجرد أن نهض «كافنديش» من مكانه على صورة جامدة لوجه مايكل براين، كان وجهه خليطًا من اليأس والأسى والألم، لقد كان في الحقيقة مهدمًا كرجل مساق إلى منصة الإعدام.. توقفتُ في مكاني ونظرت إلى «كافنديش» الذي أخرج غليونه وأشعله ثم نقلت بصري مرة أخرى إلى الصورة الجامدة لـ«مايكل» ثم قلت: «إذن متلازمة غانسر...».

قاطعني «كافنديش» قائلاً: «أصيب بها مع اقتراب نهايته، أنت تعلم أن أخطر أنواع المتلازمات هي تلك التي يُصاب بها السجين وهو على مشارف الموت، وكما ذكرت فإن أكثر المصابين بتلك المتلازمة هم المسجونون ومَن يواجهون انتظار الحكم عليهم

بالإعدام، للأسف لقد ضاع منا مايكل وسط الضجيج والتحقيقات، وللأسف نحن لا نملك الوقت الكافي، وكما ترى يا صديقي نحن بصدد رجل مخبول أقنعه عقله أو اعتقاده أو ربما منظمة ما أو جماعة من ضمن الجماعات التي تسعى دائمًا إلى زعزعة أمن العالم بارتكاب تلك المجازر البشعة».

«ومع تقدمكم ومدى دقتكم ومراقباتكم وعملائكم، عثرتم على القضية بمحض الصدفة، أقصد عثرتم على الدليل الذي يقودكم لبداية الخيط بمحض الصدفة».

ابتسم بأسى ثم قال: «لك أن تتخيل ذلك يا دكتور كمال! فالمهووسون ليست لهم برامج أو مواعيد محددة لنشر جنونهم حول العالم».

فكرتُ قليلاً في كلماته فسمعته يقول: «اليوم هو 21 ديسمبر، تُرى متى يكون ظهور المسيح؟!».

فصحنا بعد هنيهة في نَفَسٍ واحد: «يوم عيد الميلاد، الكريسماس».

التمعت عينا «كافنديش» وهو يسير إلى الخارج نافثا الدخان أمامه ثم نظر لي قائلاً: «جيد يا دكتور كمال، هذا جيد، معنى ذلك أنه لم يعُد لدينا سوى أيام، ولكن أين يكون الظهور؟!».

«القدس، القدس يا سيد كافنديش»، أجبتُه منفعلاً وكأني أجيب نفسي بابتسامة عريضة.

ابتسم «كافنديش» ثم قال: «لقد قتل إدوارد ثلاثة أشخاص أبرياء منذ أن جاءنا مايكل، أي أن محصلة الضحايا وصلت حتى الآن

إلى 11 شخصًا، منهم صبية من العرق الملكي لا ذنب لها، تُرى من سيكون ضحيته القادمة؟! نحن نسبح في تيارات من النيران، لقد وصل الأمر إلى اعتبار ما يحدث مذبحة ضد السامية، وأنت تدرك بالتأكيد تبعات الأمر وما تكتبه الصحافة عمّا يحدث وعمّا ينقله الإعلام أيضًا، لقد حاولنا بقدر الإمكان التعتيم على الأمر ولكن في اليومين الأخيرين وصل الموضوع إلى الإعلام على مستوى العالم وكذلك الصحف، وقد تدخّلت الكثير من الجماعات في الأمر ليعلنوا عن أنفسهم وعن تلك المذابح ليكسبوا شهرة عالمية، كما ظهر بعض المجانين الذين يدّعون أنهم مرتكبو هذه الحوادث، ناهيك عن الصحافة الصفراء التي تسعى إلى أن يعتقد الناس أن الأمر برمته كان مرتبًا من قبل الحكومات لتأجيج نار الخلاف بين البشر على الأرض، بين الملونين والبيض، بين المسيحيين واليهود، نحن في خطر محدق، وعلى أعتاب حرب عالمية ثالثة، وسيزداد الأمر خطرًا إن لم نوقف ذلك المجنون المدعو إدوارد».

كنت أفكر في كل كلمة يقولها، الكثير من الأفكار تقاذف على عقلي، عملية لا أستطيع التحكُّم بها، تأتيني الأفكار تباعًا دون مقدمات وتنهال على عقلي بلا رحمة، وكل ما عليّ أن أترجمها وأحوّلها إلى لغة مفهومة، القناع في خلفية الصورة، الصلبان المحروقة بجانب كل ضحية، عودة المسيح، 25 ديسمبر، الكريسماس، 11 ضحية، منهم ضحية أنثى واحدة، صبية، ترمز للبراءة، ترمز لـ... يا إلهي..

رنَّ هاتف «كافنديش» فالتقطه سريعًا، لم يرد بكلمة واحدة،

أنصت بهدوء ثم أغلق وهو ينظر إليَّ نظرة مليئة بالقلق والأسى: «دكتور كمال، لقد وجدوا ضحية أخرى».

***

وقفنا في مواجهة الجثة؛ حيث تجمهر عدد غير قليل من الصحفيين والإعلاميين، بينما طوقت شرطة سكوتلاند يارد المكان بالكامل منعًا من دخول أي فرد عادي منطقة الجريمة، الضحية رجل، يبدو من ملبسه أنه حاخام يهودي، كان ملبسه التقليدي ممزقًا من عند منطقة الصدر وكتبت عليها الرسالة المعروفة: «المسيح سيعود»، ولكن هذه المرة كانت هناك كلمة زائدة على الرسالة التقليدية: «قريبًا»، بينما كان الصليب محروقًا، شُجَّ رأسه بشكل وحشي ووضع فوقه إكليل الشوك، كان ملبسه ممزقًا من على جانبيه كما توجد آثار ضرب على وجهه ويبدو أنه فقد الوعي قبل أن يُجهز عليه ذلك الوحش، كان واضحا أنها البصمة نفسها لقاتلنا المتسلسل المهووس، نظرت في وجهه المتدلي ونقاط الدماء ما زالت تتساقط وشعرت بالشفقة تجاهه، لا يوجد أي دين في العالم يبيح القتل بهذه الصورة الهمجية، تبًّا للمتاجرين باسم الدين والمجانين الذين يسعون إلى التسريع بإسقاط العالم بهذه الصورة الدموية.

قال كافنديش: «ماذا ترى يا دكتور كمال؟!».

فنظرت إليه قائلًا: «لقد تم قتله منذ مدة قصيرة، واضح أنه تم اقتياده رغمًا عنه حتى أغمي عليه، ومن ثَمَّ تم الإجهاز عليه، أعتقد يا سيد كافنديش، ومن خلال الرسالة كما ترى، أنها الضحية الثانية عشرة وما قبل الأخيرة».

أردفت في نفسي وحسب استنتاجاتي: «نعم، تبقى ضحية واحدة، الضحية الأخيرة»، بدأت في ترتيب الأحداث مرة أخرى، المسيح سيعود، 11 ضحية، طفلة بريئة من أسرة ملكية، حاخام يهودي، لقد اقترب تمامًا من مهمته.

تلقَّى «كافنديش» مكالمة أخرى، سمعته يقول: «الخاتم يعود لمن؟! أشكرك»، ثم أغلق الهاتف ونظر لي مفكرًا باستغراب ثم قال: «الخاتم يعود إلى ناثان بيدفورد فورست».

فكرتُ قليلاً ثم صحت: «من الشخص المهم الذي سيزور القدس قريبا؟».

فكر قليلاً مستغربًا من السؤال ثم قال: «ملكة إنجلترا».

فصحتُ وأنا أجري من شدة الانفعال، لا أعرف وجهتي أين: «الملكة في خطر».

***

وقف «كافنديش» منتصبًا في مكانه يرمقني بصبر نافد وأنا أتجوَّل في غرفتي داخل الفندق، محاولاً بقدر الإمكان تجميع الخيوط، ممسكًا على الفكرة التي تأججت في عقلي وثارت، بل وصارت ذات طبيعة مستقلة تدوي كالألعاب النارية في رأسي فسمعت «كافنديش» يقول:

«بحق الله يا كمال، ماذا يحدث؟ وما الذي توصلت إليه؟!».

رمقته بعينين زائغتين ثم قلت: «العشاء الأخير يا صديقي».

فقال مندهشًا: «العشاء الأخير!». فكَّرَ قليلاً ثم قال منفعلاً: «أنت تقصد لوحة العشاء الأخير؟! ليوناردو دافنشي».

«دائمًا ذلك العبقري يكون محطة المهووسين». قلت وأنا أقترب منه بعينين لامعتين من شدة الحماسة والانفعال.

«فسِّر كلامك لو سمحت».. قال «كافنديش» منفعلاً ومتحمسًا.

«لقد قام قاتلنا حتى الآن بتوجيه رسالة مفادها أن المسيح سيعود».

«نعم!».

«وقام بقتل 11 شخصًا حتى الآن، بالإضافة إلى طفلة صغيرة بريئة».

«نعم».

«يتبقى شخص واحد لتكتمل جرائمه الـ13».

فكر قليلاً ثم قال وهو يخرج غليونه ثم قال: «هل يمكنك أن تكون أكثر تحديدًا وتشرح لي الأمر؟!».

«لقد كنت أشك في الأمر منذ بدايته، منذ أن رأيت الطفلة؛ فالطفلة يا صديقي هي رمز البراءة، الملكة التي لم تُتوَّج، مَن حملت على عاتقها الرسالة، السيدة مريم المجدلية، والـ12 الباقون هم الحواريون المختارون لتنفيذ مهمة توصيل رسالة السيد المسيح، كل جريمة قتل تم ارتكابها كانت بمثابة رسالة، كما تعرف وكما تقول القصص القديمة عن صلب السيد المسيح واختلاف الأديان حول الأمر، لكن ذلك ليس المغزى الآن، المهم أن قاتلنا يؤمن

بفكرة عقائدية رهيبة بثها في روحه بعض المدمرين الذين يسعون إلى إشعال الفتن والحروب حول العالم، وبما أن الجريمة الأخيرة وقعت لحاخام يهودي معروف، وهو رمز السلطة الدينية التي أصدرت الحكم وحاكت المؤامرات بحق المسيح حسب ما يعتقده المسيحيون حول العالم إذن فالضحية المتبقية ترمز للنفوذ والقوة التي أخذت على عاتقها تنفيذ الحكم الدموي».

«وماذا عن الخاتم؟!».

«الخاتم يعود لناثان بيدفورد، وهو من أهم جنرالات الجيش الكونفيدرالي خلال الحرب الأهلية الأمريكية، وقد وصفه قائد جيش الاتحاد بأنه أحد العبقريين الاثنين في هذا الصراع، وكما تعرف فإن العبقري الآخر هو إبراهام لنكولن، أي أن الرجل يمثل ببساطة شديدة جماعة كلوكس كلان».

فغر «كافنديش» فاه وهو يتطلع إليَّ ثم قال: «إن تلك الجماعة تكاد تكون قد انتهت تمامًا منذ سنوات يا كمال».

«لا توجد جماعة ككلوكس كلان تنتهي بهذه البساطة؛ فأنت تعرف تمامًا وتدرك بعقلك أن الأمر أكبر من ذلك، لقد تم إنقاذ إدوارد بشكلٍ ما، وأعتقد أنه تم إنقاذه عن طريق أحد المنضمين لهذه الجماعة، وقد استغل فيه ميوله القديمة التي مارست كل الجرائم ضد السود، تلك الجماعة المناهضة التي تسببت في قتل الآلاف وتشريد ما هو أكثر خلال تلك الحرب القديمة التي ما زال العالم يندد بجرائمهم ضد السود والملونين كما تعرف، ويعتبر ناثان

بيدفورد القائد أحد مؤسسي تلك الجماعة؛ لأنه كان مناهضًا شرسًا ضد فكرة تحرير العبيد».

فكَّر «كافنديش» ثم قال: «لقد ارتُكبت الجرائم بحرفية وترتيب أغبطهم عليهما، قل لي: ما أسوأ شيء قد يحدث إن تم تأجيج الصراع بين اليهود والمسيحيين وبهذه الطريقة الدموية على مستوى العالم؟! حدثني إذن عن المجازر التي ارتكبها هتلر في حق اليهود، وحدثني عن الغضب العالمي ضد ما يمارسه اليهود في فلسطين وشعبها، قل لي: من سيدخل في هذا النزاع ليستفيد منه؟ ومَن أيضًا سيكون مموِّلًا لاستمراره؟ وكم جماعة حول العالم ستتدخل لتستمر حرب قائمة على أساس ديني؟!

لقد قتل الرجل 11 يهوديًّا بينهم طفلة ترمز للبراءة كما تحدثت، وآخرُ قتلاه كان حاخامًا له ثقله في المعابد اليهودية ولن يمر الأمر بسلام كما تتصوَّر بكل تأكيد، أي أنه ببساطة يرسل رسالة مفادها أن صلب المسيح لم ولن يمر مرور الكرام، إن المسيحيين حتى وإن لم يعلنوا ذلك على الملأ فهم مؤمنون بأن تلك الجريمة التي ارتُكبت في حق نبيهم قام بها اليهود الذين صالوا وجالوا وحاكوا المؤامرات من أجل المحاكمة الهزلية التي تعرَّض لها المسيح وصُلب على أثرها بعد أن تعرَّض لكل أنواع العذاب والإهانة والسخرية، دعك من ذلك كله، فإن وجود مثل هذا الخاتم في يد أميرة صغيرة، يومًا ما قد تصبح ملكة، ما هو إلا دليل على يده الطائلة ورسالة مفادها أن الملكة تُقتل أيضًا، وبما أنها قُتلت فهذا يعني أن هناك ملكًا جديدًا قادمًا، الملك الذي يعدون له منذ فترة طويلة، لم يعُد بعيدًا، إنه يقول

ببساطة: أنا موجود وأستطيع أن أنفذ أي جريمة شئت في أي مكان شئت وفي أي وقت أشاء، و الملكة على وشك زيارة القدس! لا يا سيدي، الملكة لن تزور القدس، وهذا المجرم ومن يؤويه يرتع في الخارج ساخرًا منا، إنه يدرك أن الخاتم لن يقود إلا لجماعة ضعيفة لم يتبقَّ منها إلا مجموعة أعضاء ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، ولكن ممَّا يحدث يبدو أنهم على وشك الظهور والإعلان عن أنفسهم بقوة، وهناك شيء مهم يا سيد كمال أيضًا».

ابتسمت ابتسامة حزينة ثم قلتُ: «الصورة التي وجدناها في منزل مايكل؟!».

«بالضبط يا دكتور كمال، لقد كان والدهما بشكل أو بآخر منتميًا لجماعة كلاكس كلان، ذلك القناع الموجود بشكل لا يُلاحظ في خلفية الصورة هو القناع الذي كان مستخدمًا حينما ظهرت تلك الجماعة المنحطة، أي أن والد القاتل ذا الخلفية الإجرامية كانت له المبادئ نفسها لتلك الجماعة، ويعلم الله إن كان قد ارتكب جرائم هو الآخر أم لا، حتى إننا حتى هذه اللحظة لا نعرف مكانه، أما إدوارد، الابن المجرم والمدافع عن مايكل المسكين، الذي تصدَّى لكل ما يؤذيه، فهو مثال حي على استمرار ذلك المعتقد لدى تلك الجماعة، إنهم ينفذون بدقة خطة مدروسة من أجل إحلال الحرب على أسس دينية، إنه الانتقام المنتظر لأجل جماعتهم لينضموا في النهاية على رأس الحرب المقدسة، ولك أن تغمض عينيك لثوان وتتخيل ماذا سيكون مصير العالم بعد قتل ملكة؟!».

ردد «كافنديش» وهو ينفث الدخان الذي كوَّن سحائب حول

وجهه فبدا مظهره غامضًا: «يقتل 13، العشاء الأخير، الانتقام الأخير، الرمزية، رمزية لـ11 حواريًا، وضحية مسكينة ترمز للمجدلية وينتهي الأمر بقتل الملكة وصلبها بدم بارد، لتقوم الحرب في النهاية بكل بساطة وبلا أدنى شك ستصبح حربًا عالمية ثالثة يُباد فيها ما لا يقل عن نصف سكان العالم إن لم يكُن أكثر».

نظر لي ثم قال: «دكتور كمال، ماذا سنفعل الآن؟!».

فقلتُ مبتسمًا: «علينا أن نتقمَّص روح الراحل إبراهام لنكولن».

***

تحرَّك موكب الملكة في سيارتها «بنتلي» الفارهة في صحبة الأمير «تشارلز»، كانت تلوِّح للجمع المنتظر والابتسامة تلُوح على محياها، بينما كنتُ أنا و«كافنديش» نتابع عن كثب كل ما يحدث من خلال سيارة مكشوفة مرافقة للملكة لا تبعد عنها أكثر من أمتار قليلة، بينما كانت هناك سماعة في أذن «كافنديش» تُطلعه على جميع ما يحدث خلال التأمين. كان موعد وصول الملكة إلى طائرتها الساعة الخامسة مساءً، بينما كانت الساعة في يدي تشير إلى الرابعة وعشر دقائق، لم يكُن هناك شيء مريب، لكني كنت واثقًا أن قاتلنا يتابع كل شيء عن كثب، يفكر ويحلل ويتخذ القرارات بهدوء وصبر لا مثيل لهما، من المستحيل قنص الملكة بهذه البساطة مع التأمين الأمني المثالي الذي أعده «كافنديش»، لم ينسَ شيئًا، وعلى الرغم من ذلك بدا أنه قلق للغاية. إن «كافنديش» يحمي التاج الملكي، والملكة هي الرمز لذلك التاج، لقد قال لي بخُيَلاء: «إن حماية الملوك كحماية العرق البشري من الإبادة». كنت أفكر

وأنا أنظر في وجوه الناس من حولي، الابتسامة تعلوهم والسعادة تملؤهم، لا يوجد ما يفكرون فيه، الكثير من المراسلين من مختلف جنسيات العالم ينقلون البث الحي لانتقال الملكة إلى أورشليم، مدينة السلام، المدينة المقدسة، لمحتُ بين الناس أحدهم يرتدي ملابس قسٍّ وينظر إلى الأرض، كان مظهره مهيبًا ومميزًا، يغطي رأسه بقلنسوة، ولا تظهر منه سوى ابتسامة مريبة شيطانية. قفزت من السيارة غير عابئ بما قد يحدث لي وسط هذا المرج، فقفز خلفي «كافنديش» معطيًا أوامر في الجهاز المعلق في صديريته، وقفتُ بين المتجمهرين أتلفَّت كالمجنون باحثًا بينهم عن دليلٍ على ما يدور في رأسي المشتعل بالأفكار، قال «كافنديش»: «ماذا هناك يا كمال؟!».

فتلفتُّ حولي والحيرة تملؤني ثم قلت: «أعتقد أني رأيت إدوارد».

تلفَّت «كافنديش» حوله سريعًا بين الناس وهو يتساءل: «أواثق؟!».

«لا أعلم، لكني أجزم أني رأيته يرتدي زيَّ قس».

«شاب ذو جسد قوي، يبلغ من العمر 37 عامًا، يرتدي زيَّ قسٍّ، إن وجدتموه تعاملوا معه، لكن يُفضَّل أن يتم القبض عليه، سأقوم بإرسال صورة تقريبية له في الحال، إن توصلتم إلى شيء أخبروني».. قال «كافنديش» عبر الجهاز، ثم شدني من ذراعي قائلاً: «هيا بنا بسرعة كي نلحق بالملكة».

***

داخل الطائرة الملكية، جلست الملكة والأمير وبعض الحراس المخولين بتأمين الملكة، وكنت أنا من ضمن هذا الطاقم المحظوظ، كان شكل ابتسامته لا يفارق خيالي وأنا أجلس بجوار «كافنديش» مفكرًا. أُغلِقَ باب الطائرة واستعددنا للرحيل، وُضع أمامي كأس من الجين القوي كما وُضع أمام «كافنديش» أيضًا كأس جين أخرى. ابتسم «كافنديش» قائلاً: «جيد، الجين هو ما نحتاج إليه حقًّا في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر».

نظرتُ إليه مستغربًا بعض الشيء ثم وضعت يدي فوق الكوب وغمزت له بعيني فالتقط إشارتي ثم ابتسم ونظر أمامه تجاه الملكة التي كانت تجلس في صمت مهيب وعلى وجهها شبح ابتسامة، بينما جلس باقي الطاقم في أماكنهم يحتسون الشراب المقدم لهم. قال الكابتن بصوته الجهوري المميز: «أهلاً ومرحبًا بكم على متن الطائرة الملكية، أرحب بكم في رحلة نحو الفردوس».

غمرت الفرحة جميع مَن في الطائرة، بينما قام «كافنديش» بإخراج مسدس من سترته وأعطاه لي في هذه اللحظة، لم يمر ربع ساعة وإلا وكان الجميع يغطون في نوم عميق عداي أنا و«كافنديش»؛ لأننا ببساطة لم نشرب الجين، كنا نتظاهر بالنوم. نظر «كافنديش»، الجالس بجانب الممر، نحو الملكة ثم قال همسًا: «كيف عرفت؟!».

فقلتُ بنبرة هامسة واضحة: «إنهم لا يقدمون الجين على الطائرات الملكية».

فابتسم رغمًا عنه ابتسامة هادئة ثم قال: «كيف فاتني ذلك؟!»، ثم نظر تجاه الملكة بحذر وقال: «لكن الملكة لم تنم».

«لأنها لم تشرب، أو بالأحرى يريدها مستيقظة تمامًا».

«ماذا سنفعل الآن؟!».

«ننتظر يا صديقي.. ننتظر، ولكن كُن النائم المتيقِّظ».

***

خرج الكابتن ووقف عند باب المقصورة ونظر تجاهنا، كان «كافنديش» ينقل لي كل شيء بهدوء وهمس حذر، كنت أضع رأسي بجواره وأنا أغط في نوم مزيف كي أكون قريبًا وأستطيع سماعه.

خلع القبعة ثم نظر تجاه الملكة وركع أمامها قائلاً: «إنه يوم مشرف يا سيدتي أن تكوني بيننا اليوم، ولكن دعيني باسم المسيح وباسم مريم أن أرحِّب بك في رحلتنا إلى الفردوس، سأبذل كل جهدي ألاَّ تتعذبي»، ثم أخرج مسدسًا وأطلق النار على الأمير فمات في الحال، فصرخت الملكة وأنَّت حين رأت الدماء تسيل من جسد الأمير المسكين، لكن إدوارد أمسكها بقوة من رقبتها ورفعها عاليًا وهو يقول: «سيكون موتك هو الفتيل لإشعال الحرب المقدسة». ثم وجَّه وجهها تجاه الممر صائحًا وهي تتلوَّى بين يديه القويتين: «انظري، إنهم جميعًا خراف، لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم، أنىَّ لهم إذن أن يقوموا بحماية ملكة؟! لقد كنتِ أنتِ فقط العقدة الوحيدة والأخيرة لتكتمل مجموعتي ولأتم عملي مع رفقائي، اليوم ستعلن إنجلترا الحرب على العالم بأسره، لقد قتلوا المسيح، ولا بُدَّ أن يدفعوا الثمن، لقد حان الوقت الذي تأخر كثيرًا».

فنهض «كافنديش» من مكانه ووجَّه مسدسًا تجاه «إدوارد» صائحًا: «اترك الملكة يا إدوارد، اتركها بحق الله وإلا أرديتكَ قتيلاً، ولا تختبر صبري».

فسمعت «إدوارد» يضحك ضحكة جهنمية وهو يقول: «أنا أملك الملكة، وأنت لا تملك سوى مسدس رديء يا سيد كافنديش، من يملك الورقة الرابحة إذن؟!».

صرخ «كافنديش»: «اترك الملكة أيها الأحمق، لن تفلت من العقاب».

فقال «إدوارد»: «عن أي عقاب تتحدث يا سيد كافنديش؟! أنتم المعاقبون المخنثون الذين دفنوا رؤوسهم في الرمل منذ مدة طويلة جدًّا حينما رضيتم أن تكون المدينة المقدسة في يد المسلمين تارة وتارة أخرى في يد اليهود، المسيح سيعود اليوم، اليوم فقط سيعود». ثم ضحك عاليًا وهو يقول: «وقل لي يا سيد كافنديش، من أي عصر أنت؟! ما حقيقتك؟ من أنت في الحقيقة؟! لو قلت لي الحقيقة سأترك الملكة».

ساد صمت مهيب وثقيل، ورأيت «كافنديش» متلعثمًا ينظر بقلق إلى «إدوارد»، فنهضت من مكاني فجأة وأطلقت رصاصة لم تصبه، لكنه بسرعة فائقة أخرج مسدسًا وصوَّبه نحوي وأطلق الرصاص في اللحظة التي أطلق فيها «كافنديش» خمس رصاصات صوبه أردته قتيلاً في الحال. في الحقيقة، كان الظلام والبرد يهجمان بشكل غريب، أحسست بأني أطفو، خارج جسدي، أهيم داخل مساحة

هلامية ذات ألوان متداخلة تغلب عليها مسحة من الرمادي، لقد خيَّم الظلام تمامًا. نعم، لم يكُن هناك شيء آخر.

***

في المستشفى، علمتُ بإصابتي برصاصة بجوار صدري ودخلت في غيبوبة لم أفِق منها إلا بعد ثلاثة أيام كاملة، وقف «كافنديش» في مواجهتي مبتسمًا يربت عليَّ بحنو، بينما عيناه تشعان امتنانًا صادقًا. اقترب مني ثم قال: «لقد كانت اللعبة الأخيرة بحق يا دكتور كمال، لا نعرف حقًّا بكم ندين لك، لقد أنقذت الملكة، كما أنقذت العالم من حرب لا مفرَّ منها، هيا استفِق من غيبوبتك الطويلة تلك أرجوك؛ لأن العرش الملكي كله في انتظارك، لقد قمنا باستبدال الملكة والأمير كما تعرف قبل أن يصعدا على متن تلك الطائرة المشؤومة، وليرحم الله الضحايا ويلقِ بالمجرمين في سعير، أذاقهم الله عذابه من كل صوب كما عذبوا البشرية بلا حق».

ابتسمتُ ابتسامةً واهنةً ثم قلت: «مَن أنت حقًّا يا سيد كافنديش؟!».

***

دلف عليَّ في هذه اللحظة ونظر إليَّ نظرة طويلة، كان مهيبًا كعادته، أخرج غليونه المعروف وأشعله ثم نفث سحابة من الدخان ثم قال: «ألم تعرفني بعدُ يا صديقي؟!».

تمت بحمد الله.

انتظروني في الجزء الثالث

عمرو الجندي

المراجع

• Giannini AJ، Slaby AE، Robb TO (February 1991). "De Clérambault's syndrome in sexually experienced women". The Journal of Clinical Psychiatry. 52 (2): 84

• Bipolar Disorder overview from the U.S. National Institute of Mental Health website

• Jameson C (2010). "The Short Step From Love to Hypnosis: A Reconsideration of the Stockholm Syndrome". Journal for Cultural Research. 14.4: 337–355.

• Also known as SUDS. See: Reddy PR، Reinier K، Singh T، Mariani R، Gunson K، Jui J، Chugh SS. Physical activity as a trigger of sudden cardiac arrest: The Oregon Sudden Unexpected Death Study. Int J Cardiol. 2008

• Knoblosh، F. (1986). Ganser Syndrome and DSM-III. American Journal of Psychiatry، 143(3)، 393-393.

• McVeigh، Rory. "Structural Incentives for Conservative Mobilization: Power Devaluation and the Rise of the Ku Klux Klan، 1915–1925." Social Forces، Vol. 77، No. 4 (June 1999)، p. 1463.

السيرة الذاتية للكاتب

حياته وأصوله

عمرو الجندي مواليد عام 1983, كاتب روائي تعود أصوله إلى تركيا, ينتسب مباشرة إلى الأمير مصطفى جوربجي أرنود الذي كان قائدا للجيش خلال الحكم العباسي لمصر, واستقرت عائلته التي تنتمي للطبقة الأرستقراطية في مصر حتى قيام ثورة 1952 التي جردت عائلته من معظم أملاكها ورغم ذلك لم يغادر معظم عائلته مصر, ترعرع الجندي بين عدة محافظات منها دمياط والقاهرة والإسكندرية وبورسعيد وأسيوط, واختلط بثقافات متعددة أثقلت موهبته ورؤيته وفلسفته, التحق بمدارس اللغات فأتقن الإنجليزية والفرنسية كما أجاد الدراما التي كانت تُدرس له في المنزل تزامنا مع دراسته كما التحق بالمدارس العسكرية فيما بعد لتدعم لديه حس القيادة حيث أبقى والده على استمراره في مراكز ودورات إعداد القادة خلال العطلات الصيفية في العقد الأخير من القرن المنصرم .

حصل على عدة مراكز مرموقة منها جائزة التمثيل المسرحي الأولى وهو في سن العاشرة كما حصل على جائزة الشعر الأولى في عمر الحادية عشر كما حصد الجائزة الأولى للقصة القصيرة في مصر حينما بلغ 13 عاما, كان رئيسا لاتحاد الطلبة في محافظة دمياط كما كان الطالب المثالي لمدة ثلاث متعاقبة, اشترك أيضا في العديد في المهرجانات المحلية والإقليمية والدولية خلال فترة دراسته حيث تنوعت دراسته ما بين العلوم والآداب والدراما التي لاحظت عائلته ميوله لها منذ الصغر, انتقل مباشرة بعد إنهائه للثانوية العامة لدراسة علم الرموز واللغات - مع إبقائه على دراسة البيزنس ببورسعيد - على يد أكثر من دكتور جامعي بجامعات عربية حيث شرع في إثقال دراسته الخاصة بالفلسفة وعلم النفس الذي طور كثيرا من رؤيته فيما بعد .

انتقل الجندي بعد إنهاء دراسته المحلية للجامعة الأمريكية ليدرس البيزنس توازيا مع دراسته للعلوم الاقتصادية في دورات مكثفة في جامعة المنصورة, وبعد أن تم إعفائه من الخدمة العسكرية انتقل إلى دولة الكويت ليعمل هناك في الإدارة التنفيذية وليبدأ رحلة البيزنس الخاصة به, حيث خلال عامين أضحى المدير التنفيذي لمجموعة شركات كما كان مسئولا عن إبرام العقود في الخارج مما ساعده على التنقل بين الدول العربية والأوروبية وخلال رحلاته التقى بمدير الأكاديمية الإنجليزية ورئيس فرع الدراما بجامعة إنجليزية شهيرة والذي كان سببا في تشجيعه إلى تنمية مهاراته في عالم علم النفس وفي عام 2008 قرر الجندي كتابة الدخول إلى عالم الأدب تزامنا مع دراسته للدراما في جامعة ليفربول .

أعماله وإنجازاته

• في عام 2008 تم إبرام عقده بينه وبين دار أكتب ليصدر له أول كتاب نصوص تحت اسم " قصة حب سرية ", الكتاب مليء بالرموز والإسقاطات التي أشاد بها أكثر من كاتب وناقد فتوسموا فيه قلما مختلفا له ثقل درامي متنوع الثقافات وقد شجعه الكثيرون على كتابة أول كتاب قصصي له .

• عام 2009 تم الاتفاق مع دار أكتب للمرة الثانية على نشر أول مجموعة قصصية له والتي حملت عنوان " من أجل الشيطان " وقد كان ذلك التوقيت الذي شرع فيه أدب الشباب يظهر جليا على الساحة ما بين الرفض والقبول من المدارس المختلفة الحاضرة على الساحة وقد أقيمت له أول حفل توقيع عام 2010 وقد لاقى نجاحا مميزا حيث قرر أن يعود نهائيا من الغربة تاركا عالم البيزنس لديه حيث انهارت أسهم شركته التي أسسها مع الكارثة الاقتصادية التي عمت العالم منتصف عام 2008 مما جعله يشعر بأنها الإشارة للتركيز على عالم الأدب

• عام 2010 قام بتأسيس أول شركة " Movie Maker " بالتعاون مع المخرج أحمد صيام حيث قام بانتاج أكثر من فيلم حازت على جوائز متعددة .

• عام 2010 قام الجندي بالاشتراك في مهرجان القصة العالمية بقصة بعنوان " لو لم يقتل " مترجمة إلى ثلاث لغات والتي أشاد بها العديد من النقاد والأدباء الإقليمين والعالميين

• عام 2011 قام الجندي بالمشاركة بشكل كبير وفعال في حملة " لا للتحرش " حيث صدرت له العديد من المقالات على مختلف الجرائد المصرية والعربية كما كان له تأثيرا قويا بمقالاته الأدبية التي كانت تنادي بالتمرد على الكتابة وخلق عالم جديد يناسب الأدب المعاصر خروجا من فوهة الجيل الذهبي اذي ترك إرثا كبيرا يناسب وقتهم كما كان يرى أن الخروج من تلك العزلة هو أهم ما يتطلبه الأدب العربي في هذه المرحلة

• عام 2011 أصدر روايته الأولى والتي حملت اسم " فوجا "، من خلال دار الرواق وهي رواية تندرج تحت علم النفس والجريمة والتشويق وقد حققت روايته الأولى نجاحا كبيرا وتربعت على عرش المبيعات كما فازت بالجائزة الأولى للقلم الحر في الإبداع العربي في نفس العام .

• عام 2011 قام بانتاج أول فيلم روائي قصير تحت اسم " غضب البحر والنهر " والذي نال أكثر من جائزة دولية كما نال جائزة لجنة التحكيم في مهرجان الإسكندرية العالمي للسينما .

• عام 2012 استمر على منهجيته ومحاولة الخروج من العزلة لقيادة جيل جديد من المفكرين والأدباء الشباب فأصدر عمله الأدبي الرابع والرواقي الثاني تحت عنوان " 9 ملّي " والذي حقق نجاحا مبهرا حيث حقق أعلى المبيعات في العديد من المكتبات المصرية والعربية كما حقق مبيعات كبيرة في معرض القاهرة للكتاب عام 2012 مما دفع الدار المصرية اللبنانية وهي من أهم الدور المصرية والعربية لضمه إلى صفوفها ليوقع معهم عقد عمله القادم

• كحال كل الناجحين تعرض الجندي لموجة كبيرة من الانتقادات التي دفعته للعزلة حيث خرج عام 2013 بعمله الإبداعي الملحمي الذي حمل اسم " 313 "، وهي أول

رواية عربية تناقش فكرة السيكودراما, وقد حققت الرواية نجاحا منقطع النظير وقد وصفها العديد من النقاد بأنها رواية " الألم والغموض", حيث استعان الجندي بقدرته الهائلة في علم النفس والفلسفة والسرد الذي اختلف تماما عن أعماله السابقة, وصارت ذلك العمل ماركة أدبية مسجلة حتى يومنا هذا وقد تم ضم الرواية إلى باكورة أعمال مكتبة الإسكندرية كما قامت العديد من المصحات النفسية في دولتي الإمارات والبحرين بضمها إلى مكتباتها حيث حققت الرواية جدلا ونجاحا واسعا في الدول العربية وقد أقيم للجندي أكثر من حفل توقيع في معظم محافظات مصر كما شاركت الرواية في المعارض الأوروبية وقد حصدت نجاحا كبيرا في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب بألمانيا .

• عام 2013 أسس الجندي مجموعة أدبية تحت اسم " التولتمية " مشتقة من محبي روايته " 313", كانت تلك المجموعة تحت قيادته لها باع كبير في تلك الفترة في نجاح العديد من الأعمال والأمسيات الثقافية على مستوى الجمهورية حيث كان لكل محافظة مجموعة تمثل الجندي وعالم التولتمية كما كان لهم باعا كبيرا في نجاح معرض الكتاب عام 2014 حيث تم تنظيمهم بشكل متقن ليعبروا عن آراء الشباب القراء وميولهم خلال تلك الفترة .

• عام 2014 قام الجندي بإطلاق روايته الرابعة تحت اسم " مسيًا", وتعني المخلّص في الاعتقاد اليهودي, وقد دارت أحداث الرواية في خمسة دول, (مصر - تركيا - إيطاليا - فرنسا - انجلترا), وقد استعان بفريق كامل لجلب البيانات الممكنة للرواية من جميع الدول, حيث صرّح بأن جميع الخرائط والأماكن والجمعيات السرية هي حقيقية تماما, وقد حققت الرواية مبيعات كبيرة في المكتبات المصرية والعربية كما ساهمت في فتح الباب أمام الموهوبين حيث قام الجندي باكتشاف أسماء كثيرة وقدمها إلى المجتمع الثقافي والتي صار لها باعا خلال الوقت الراهن .

• عام 2014 قام بانتاج فيلم حارس المعبد نتاج الحضور في فعاليات مهرجان الأقصر للسينما الأفريقية .

• عام 2014 قام الجندي بإطلاق مشروع الغرباء, وهي مشروع نفسي متكامل يناقش فيها الأمراض النفسية النادرة والغريبة من خلال توظيف الأدب والدراما والفلسفة, قصص متصلة منفصلة, بطلها واحد وقد لاقى الجزء الأول منها نجاحا كبيرا وحققت مبيعات كبيرة في مختلف المكتبات المصرية والعربية .

• عام 2015 شرع الجندي في دراسة الجرافيك من خلال الجامعة الأمريكية وأنهاها عام 2016

• عام 2016 قام الجندي بالتعاون مع دار التنوير بنشر روايته " انتحار برائحة القرنفل", رواية مغرقة في المحلية والتي جاءت عكس التوقعات وقد أشاد بها القراء والنقاد على السواء لما يملكه الجندي من تحد واضح في أسلوبه الأدبي وتوظيفه بشكل مبتكر في الإلمام بجميع أطياف المجتمع من خلال ثورة يناير وقد أسهم علم النفس إسهاما كبيرا في خروج العمل بهذه الصورة المميزة

• عام 2017 قام الجندي بالاشتراك مع الهيئة الملكية الأردنية للأفلام في وضع رؤية لفيلم " 313 " وترجمته إلى اللغة الإنجليزية

• عام 2017 شرع الجندي في دراسة البيزنس في جامعة برلين ليوطد أعماله وتأهيلا لتأسيس شركته الخاصة في عالم الأدب

• عام 2017 قام الجندي بتأسيس وكالة مارلي الأدبية وقد اختارته الإدارة ليكون مديرا تنفيذيا لها .

• عام 2018 قام الجندي بالشراكة مع وكالة مارلي ودار الرسم بالكلمات وتطبيق اقرألي للكتب المسموعة في إطلاق رواية " الآلة " والتي حملت بين طياتها اتجاها فلسفيا كان له عميق الأثر على قرائه الذين نادوا بإكمال ذلك الفكر المختلف والذي يخرج الرواية العربية من العزلة التي تقع فيها, حققت الرواية مبيعات كبيرة في مختلف المكتبات كما حققت الرواية الأكثر استماعا لعام 2018

المحتويات

«كريستين»..... 13
اللعبة الأخيرة..... 49
هوس العشق..... 53
الجريمة الأخيرة..... 93
دا تشو..... 135
الأخوان «براين»..... 161
المراجع..... 201
السيرة الذاتية للكاتب..... 203

يواصل عمرو الجندي رحلته في الجزء الثاني مع دكتور كمال الشريف الذي ترك كراسة قديمة امتلأت بذكريات مع المرضى النفسيين والمجرمين حول العالم وما زال البحث جاريا عن القاتل الذي قتل الطبيب الشهير الغامض. ما زالت العديد من الأسئلة تحلق في الأفق! من هو القاتل؟! كيف سيتم اكتشافه؟! ما الذي يخبئه لنا الجندي في جعبته هذه المرة؟! وأنى لشخص موظف بسيط أن يحمل على كاهله الكشف عن أكثر القضايا غموضا!!

عمرو الجندي كاتب روائي مصري، عضو اتحاد كتاب مصر. صدرت له العديد من الأعمال : رواية " فوجا " عام ٢٠١١ وحصلت على جائزة القلم الحر في الإبداع العربي ورواية "٩ ملّي" عام ٢٠١٢ ورواية " ٣١٣ " عام ٢٠١٣ وقد اختيرت من أفضل خمسة أعمال صادرة لعام ٢٠١٣ ورواية "مسيًا" عام ٢٠١٤ والمجموعة القصصية "الغرباء" عام ٢٠١٤ ورواية "انتحار برائحة القرنفل" عام ٢٠١٤ ورواية الآلة عام ٢٠١٨ وقد حققت أعماله مبيعا ورواجًا كبيرا في مصر والعالم العربي.

تصميم الغلاف : وكالة مارلي